من ثمرات التمسك بالسنة

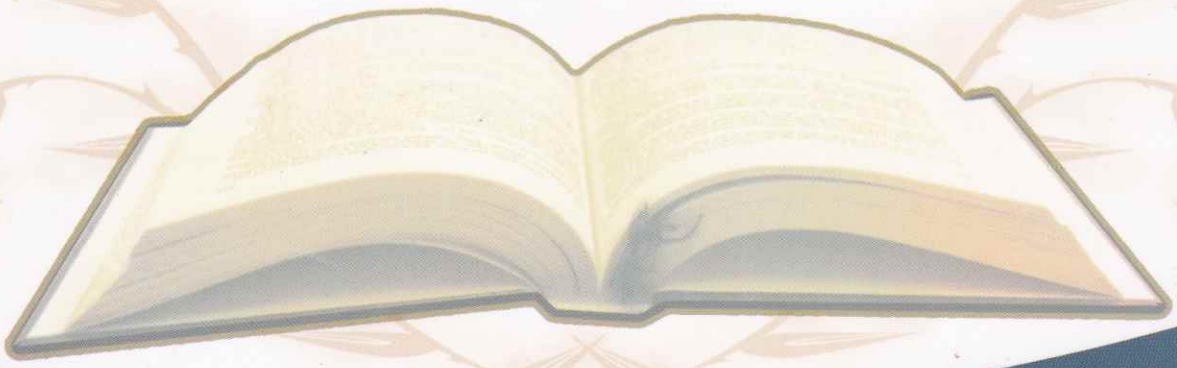

تأليف

فضيلة الشيخ الدكتور

عبد الله بن عبد الرحيم البخاري

المدرس بكلية الحديث الشريف بالجامعة الإسلامية

دار أضواء السلف للنشر والتوزيع

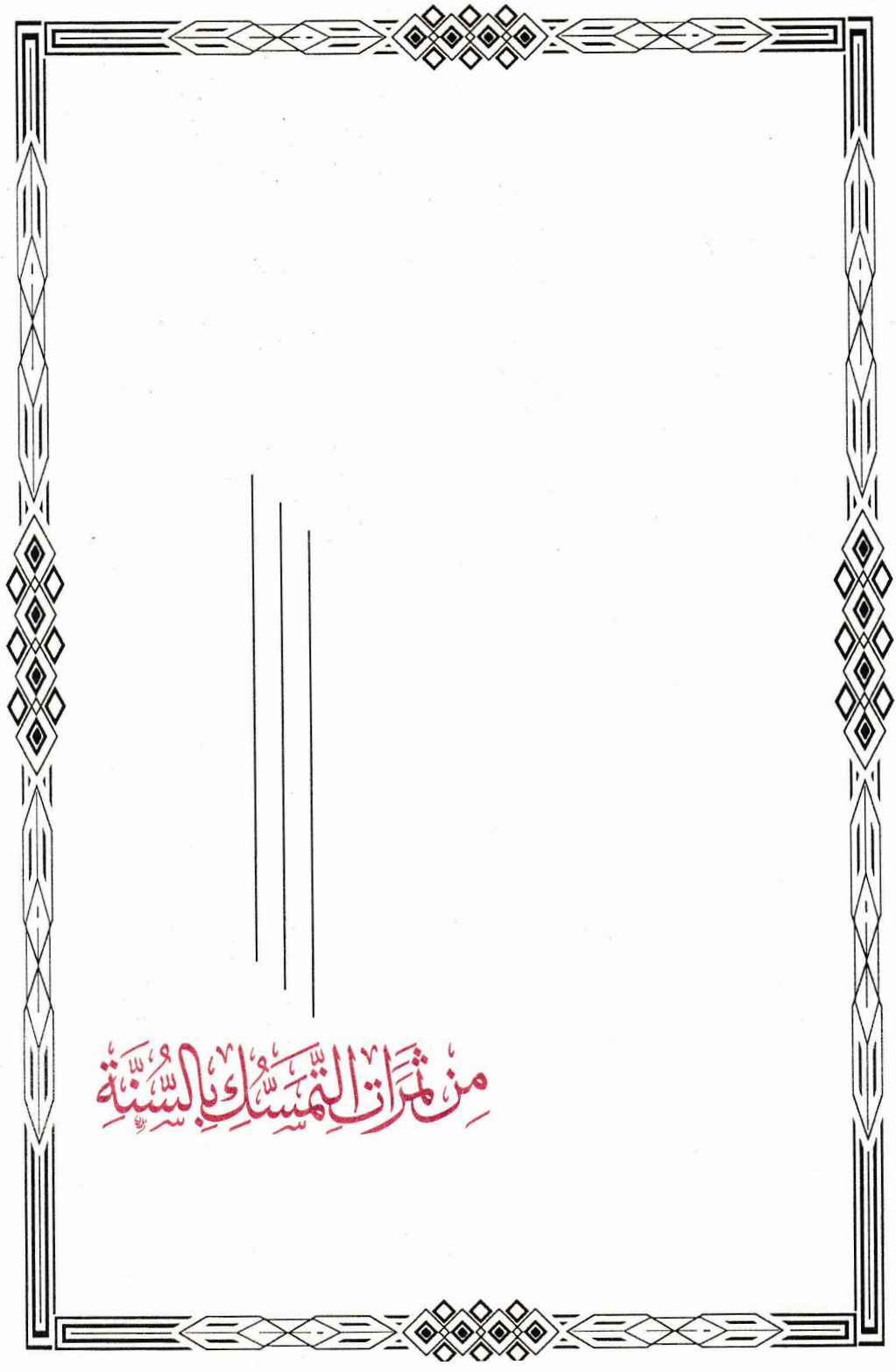

من ثمرات التمسك بالسنة

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية :

٢١٢٣١ / ٢٠١٠م

دار أضواء السلف
للنشر والتوزيع
جمهورية مصر العربية - القاهرة
هاتف: ٠٠٢٠١٠١٠٠١١٤٥ — ٠٠٢٠١٢٣٨٦٨٤١٠ — ٠٠٢٠١٠٥٨٦٦٢٠١
Email: adwaasalaf 2007@yahoo.com
ashehata77@yahoo.com

من ثمرات التمسك بالسنة

تأليف

فضيلة الشيخ الدكتور

عبد الله بن عبد الرحيم البخاري

المدرس بكلية الحديث الشريف بالجامعة الإسلامية

دار أضواء السلف

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

إنَّ الحَمدَ للهِ، نَحمدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفرُهُ، ونعُوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أنفُسِنَا ومِن سَيئاتِ أعمَالِنَا، مَن يهدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضلِل فَلا هَادِيَ لَهُ.

وأشهَدُ أن لَا إِلهَ إِلَّا اللهُ وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأشهَدُ أنَّ مُحمَّدًا عَبدُهُ ورَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١]

أَمَّا بَعدُ:

فَإِنَّ أَصدقَ الحَديثِ كتابُ اللهِ، وخيرَ الهَدي هديُ مُحمَّدٍ ﷺ، وشَرَّ الأمورِ مُحدَثَاتُها، وكُلَّ مُحدَثَةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضَلالةٌ، وكلَّ ضَلالةٍ فِي النَّارِ.

فَإِنِّي أَحمَدُ اللهَ إليكُم أيهَا الإخوةُ الكرامُ أن هيَّأ لنا هذَا اللقَاءَ في هذَا المَكَانِ المُبَارك فِي هَذَا البَلد المبارَك[1] -بإذن الله-، وأسألهُ -جَل وعَلا- أن ينفعَنا وإيَّاكُم بما نقُولُ ونسمعُ، وأن يبارِك لنَا وَلَكُم فِي الأعمَارِ والأعمالِ والأوقَاتِ، وأن يجعلَهَا لوجهِهِ خالصَةً؛ إِنَّه سَميعٌ مُجيب.

والمُحاضرَةُ التَّذكيريَّةُ لنَفسي أولًا، ثُم لإخواني ثَانيًا، هِي بعُنوان:

«من ثمرات التَّمسُّك بالسُّنَّة»

و إنَّ مما لا شكَّ فيه لدَىٰ ذَوي العُقولِ والألبابِ - أيُّهَا الكِرامُ-: أنَّ الكَلامَ عَن الشُّرَفَاءِ وَالنُّجَباءِ، والفُضَلاءِ وَالعُقَلاءِ يَأخُذُ بالألبَابِ وَيأسِرُهَا؛ فَإِنَّ الأسمَاعَ تَتَعَطَّرُ بِذِكرِهِم، وتَشرَئِبُّ الأعنَاقُ إلىٰ سمَاعِ سِيَرِهِم، كَيف وَإن كَانَ الكلامُ عن سَيِّد النُّجبَاء، وإمَامِ الشُّرفاءِ -عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ-، سيدِ

(١) أُلقِيَتْ هذه المُحَاضَرة فِي دَولَةِ الكُويتِ، ضمنَ فَعَاليات الدَّورة العلميَّة التي أقَمتُها هُنَاك، وكانت فِي أوَّلِ شَهرِ جُمَادىٰ الأُولَىٰ عام ١٤٣٠هـ، جزَىٰ الله الإخوة الدَّاعين وَالقَائمين علَىٰ تِلكَ الدَّورةِ خَيرًا.

الأوَّلينَ والآخِرينَ مُحمدِ بنِ عبدِ اللهِ -صَلوات رَبي وسَلامُه عَليه- وعَن سُنَّتِهِ؟!

هذا النَّبيُّ الكريم أرسلَهُ الله رَحمةً للعَالمينَ بَشيرًا ونذيرًا، بَشيرًا لمَن آمنَ بهِ وصدَّقه، وعملَ بسُنته وأطاعَ أمرَه، ونَذيرًا لمَن كفَرَ بهِ وصدَّ وردَّ سُنته، وحادَ عَن طَريقَتِهِ.

ببعثته ﷺ فَرَقَ اللهُ بَين الحقِّ والبَاطلِ، بينَ الغثِّ والسَّمينِ، وبَين الظُّلمةِ والضيَاءِ، قالَ اللهُ -جلَّ وعَلا-: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ﴾ [المائدة:١٥]

قَالَ الإمامُ أبُو جَعفَر بن جَريرٍ الطَّبريُّ عِند هذِهِ الآيةِ: «يعنِي بالنُّورِ: مُحمَّدًا ﷺ الَّذِي أنارَ الله بهِ الحقَّ، وأظهرَ بهِ الإسلامَ، ومَحَقَ به الشِّركَ؛ فهُو نورٌ لمَنِ استَنارَ بهِ ﷺ يُبَيِّنُ بِهِ الحَقَّ»[1].

لَا أقُولُ -أيُّهَا الإخوَةُ-: أنَّ الحيَاةَ كانَت ظَلامًا قَبل بَعثتِهِ؛ لأنَّ هذَا لا يَكَادُ يغيبُ عَن أحَدٍ.

ولَا أقولُ: إنَّ الظُّلمَ كَان مُنتشرًا؛ لأنَّ هذَا لا يَجهَلُهُ أحدٌ.

---

(١) «جامع البيان» (٦/ ١٦١).

ولا أقولُ: إنَّ الشِّركَ قَد ضَرَبَ بِأَطْنَابِهِ يَمنةً ويَسرةً في الأرضِ؛ لأنَّ هَذا يعقِلُهُ كلُّ أحدٍ.

فلمَّا بعثَ اللهُ محمَّدًا ﷺ جاءَ مَعه الحَقُّ وزَهقَ الباطلُ، جاءَت معَهُ الحَياةُ، وجاءَ معَه النورُ والهُدىٰ، جاءَ معهُ العَدلُ، ومَحَا اللهُ بِهِ الشِّركَ.

وَلَمَّا كَانَ الكَلامُ عَن مَوضُوعِ المُحَاضَرَةِ لَا تَكفيه هَذه اللَّحَظات، اخترتُ بَعضًا مِن ثَمَراتِ التَّمسك بِسُنَّته ﷺ، وهي دَالةٌ عَلىٰ غَيرِهَا؛ لذَا فَقَد أَدَرتُ المُحَاضَرة علَىٰ النَّحو التَّالي:

أَوَّلًا: ذكرُ بعض النُّصوص مِنَ الوحيين الآمرة باتِّباع النَّبي ﷺ وَالمُحذِّرة مِن مُخَالفته.

ثانيًا: مَعنىٰ الإيمان بالنَّبيِّ ﷺ، و ذكرُ صِفَةِ رَسُول الله ﷺ في التَّوراة.

ثالثًا: مَعنَىٰ السُّنَّة.

رابعًا: كمَالُ شَريعتهِ ﷺ.

خامسًا: ذِكرُ جُملةٍ مِن ثَمَراتِ التَّمسُّكِ بالسُّنَّةِ، ومنها:

الثَّمرة الأولىٰ: أنَّ المتمسك بها متبعٌ للأمر الإلهي، وهذا مِمَّا يحبه الله ويرضاه.

الثَّمرةُ الثَّانية: أنَّ المتمسك بها مُحصِّلٌ للهداية والسَّلامة مِنَ الضَّلال والزَّيغ.

الثَّمرةُ الثَّالثةُ: أنَّ التَّمسك بها عِصمَةٌ و أمنٌ من الوقُوع في الاختلاف المذمومِ، والفُرقة المذمومة.

الثَّمرةُ الرَّابعةُ: أنَّ التَّمسُّك بها فِكَاكٌ مِن سُبل الشيطان.

الثَّمرةُ الخامسةُ: أنَّ المتمَسِّكَ بها له أجر مَن تَبِعهُ.

الثَّمرة السَّادسةُ: أنَّ المتمَسِّك بها مُحصِّلٌ للسَّعادة في الدَّارين.

الثَّمرةُ السَّابعةُ: أنَّ المتمسك بها يَصلُ إلىٰ دَرجة مَحبَّةِ الله له.

سادسًا: ذكرُ صُورٍ مِن تَعظيم السَّلفِ للسُّنَّةِ وَتَمَسُّكِهِم بِهَا.

سابعًا: الخَاتمة، ختمَ الله لنا ولكم بخيرٍ.

أوَّلًا: ذكر بعض نصوص الوحيين الدالَّة والآمرة على اتِّباع النَّبيِّ ﷺ والمُحذِّرة من مُخالفته ﷺ

المُتأمِّلُ فِي نُصُوصِ الوَحيَينِ يَجِدُ أَنَّ الأَدِلَّةَ فِيهِمَا تَضافَرَت دَلَالَةً عَلَىٰ وُجُوبِ اتِّبَاعِ النَّبِيِّ ﷺ -المَبعُوثِ رَحمَةً لِلعَالَمِينَ- وَتُحَذِّرُ مِن مُخَالَفَتِهِ ﷺ، وَالإِعرَاضِ عَمَّا جَاءَ بِهِ.

يقُولُ الإمَامُ المُبجلُ إمامُ أهلِ السُّنةِ الإمَامُ أحمَدُ: «نَظَرتُ فِي المُصحَفِ فَوجَدتُ طَاعةَ الرَّسولِ ﷺ فِي ثَلاثَةٍ وثَلاثينَ مَوضعًا»(١).

فمن ذلك:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء:٥٩]

﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران:٣٢]

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ [النور:٥٦]

---

(١) نقله شيخ الإسلام ابن تيمية في «الصارم المسلول» (ص٥٦).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ﴾ [الأنفال:٢٠].

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [المائدة:٩٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ [الأنفال:٢٤].

﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [النساء:١٣].

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء:٦٩].

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥].

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الأنفال: من الآية١٣].

ويقول: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣].

ويقول: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥].

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب:٣٦].

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران:١٦٤].

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب:٢١].

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: من الآية٥٢].

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١].

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ [النساء:٨٠].

وأمَّا من السُّنَّة، فهي كثيرةٌ أيضًا منها:

مَا أخرَجَ البُخاريُّ فِي «الصَّحيحِ»(١) أنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ: «صَلُّوا كمَا

(١) (١/ رقم ٦٣١/ ١١١- فتح).

رأيتُموني أصَلِّي»، وهذا أمرٌ مِنهُ ﷺ.

وَأَخرَجَ مُسلمٌ فِي «الصَّحيحِ»(١) أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «**لتأخُذوا مَناسِكَكُم، فإنِّي لَا أَدري لعلِّي لَا أَحُجُّ بعدَ حجَّتي هَذِهِ**»، واللَّام لامُ الأمرِ؛ أي لِتَأخُذُوا عنِّي مَنَاسِكَ الحَجِّ.

وَأَخرَجَ البُخاريُّ في «الصَّحيحِ»(٢) مِن حَديثِ أبِي هُريرَةَ رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «**كُلُّ أمَّتي يَدخُلُونَ الجَنَّةَ إلَّا مَن أبَىٰ**»، قَالُوا: يَا رسُولَ اللهِ، ومَن يَأبَىٰ؟ -أَي أنَّ هذَا أمرٌ لا يُعقلُ مَن هَذَا الَّذِي يأبَىٰ ولا يُريدُ الجنَّةَ؟!-. قالَ: «**مَن أطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، ومَن عَصَانِي فقَد أبَىٰ**».

قال الحافظُ ابنُ حجر في «الفتح»(٣): «الموصوفُ بالإباءِ وهُو الامتِناعُ؛ إن كَانَ كافرًا فَهُو لا يَدخلُ الجنَّةَ أَصلًا، وإن كانَ مُسلمًا فَالمُرَادُ: مَنعُهُ مِن دُخُولِهَا مَع أَوَّلِ دَاخِلٍ إلَّا مَن شَاءَ اللهُ تَعالَىٰ».

قَالَ الإمامُ الحافظُ ابنُ حِبَّانَ البُستِيُّ في «الصَّحيحِ»(٤): «طَاعةُ الرَّسُولِ ﷺ هيَ الانقيَادُ لسُنَّتِهِ... -إلىٰ أن قالَ-: مَعَ رَفضِ قَولِ كُلِّ مَن قَالَ شيئًا فِي دِين الله ﷻ بِخِلَافِ سُنَّتِهِ، دُونَ الاحتيَالِ فِي دَفعِ السُّنَنِ بِالتَّأويلَاتِ المُضمَحلَّةِ

(١)(٢/ رقم ٣١٠ (١٢٩٧)/ ٩٤٣).

(٢)(١٣/ رقم ٧٢٨٠/ ٢٤٩-فتح).

(٣)(١٣/ ٢٥٤).

(٤)(١/ ١٩٧- مع الإحسان).

وَالمُختَرَعَاتِ الدَّاحِضَةِ».

وَعَنِ العِربَاضِ بنِ سَارِيَةَ ﷺ قَالَ: وَعَظَنَا رسُولُ اللهِ ﷺ مَوعظَةً وَجِلَت منهَا القُلوبُ، وذَرفَت منهَا العُيونُ، فقُلنَا: يَا رسُولَ الله، كأنَّها مَوعظَةُ مُودِّعٍ فأوصِنَا، قالَ: «**أُوصِيكُم بتَقوىٰ اللهِ، وَالسَّمعِ وَالطَّاعةِ، وَإن تأمَّرَ عَليكَ عَبدٌ؛ فإنَّهُ مَن يَعش مِنكُم فسَيرىٰ اختِلافًا كَثيرًا؛ فَعلَيكُم بسُنَّتِي وسُنةِ الخُلفَاءِ الرَّاشِدينَ المَهدِيِّينَ، عَضُّوا عَليهَا بالنَّواجِذِ، وإيَّاكُم ومُحدثَاتِ الأمُورِ؛ فإنَّ كُل بِدعةٍ ضَلالةٌ**».

أخرجهُ أبو دَاودَ في «السُّنَن»[(١)]، والتِّرمِذيُّ فِي «الجامع»[(٢)]، وابنُ ماجَه في «السُّنن»[(٣)] وغَيرهُم، وهُو صَحيحٌ[(٤)].

قَد رسَمَ النبيُّ ﷺ فِي هَذَا الحَديثِ العَظيمِ وفِي هَذِهِ المَوعظَةِ البَليغةِ رَكيزَتَينِ أسَاسيَّتَينِ هُما[(٥)]:

---

(١) «السنن» (٥/ رقم ٤٦٠٧).

(٢) «الجامع» (٥/ رقم ٢٦٧٦) وقال: «حديثٌ حسنٌ صحيحٌ».

(٣) «السنن» (١/ رقم ٤٣ و٤٤).

(٤) وصحَّحه ابنُ حبان بإخراجه له في «صحيحه» (١/ رقم ٥)، وقالَ الحافظُ أبو نعيم: «هو حديثٌ جيِّدٌ مِن صحيح حديث الشَّاميين» من «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (٢/ ص ١٠٩).

وصحَّحه الألباني؛ ينظر: «المشكاة» (١/ رقم ١٦٥/ ٥٨).

(٥) ينظر: «معالم السنن» للخطابي (٧/ ١٢)، و«جامع العلوم والحكم» لابن رجب (٢/ ١١١- وما بعدها).

١- الاتِّبَاعُ.

٢- تَركُ الابتِداعِ.

فَهَذِهِ جُملَةٌ مِن نُصُوصِ الوَحيَينِ الحَاثَّةِ وَالآمِرَةِ وَالمُحَذِّرَةِ مِن مُخَالَفَةِ سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ.

ثانيًا: معنى الإيمان بالنبي ﷺ، وذكرُ صفة رسول الله ﷺ في التَّوراة

قَالَ شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّة مبيِّنًا مَعنىٰ الإيمَان بالرَّسولِ ﷺ إنَّه: «تَصدِيقُه وطَاعتُهُ و اتِّبَاعُ شَريعتِه»[1].

وَلِهَذَا قالَ أَهلُ العلم كشيخِ الإسلامِ وغيرِهِ: تَصدِيقُهُ ﷺ يَلزَمُ مِنه أمرَانِ:

الأمرُ الأوَّلُ: إثباتُ نُبوَّتهِ ﷺ، وصدقه فيما بلَّغه عن الله.

الأمرُ الثَّانِي: تَصديقُه فيمَا جاءَ بِهِ، وأنهُ جاءَ بالحق، وهو واجبُ الاتِّباعِ.

أَمَّا عَن صِفَتِهِ ﷺ فِي التَّوراة:

فقد روَىٰ البخاريُّ في «الصَّحيح»[2] أنَّ عطَاءَ بنَ السَّائبِ قالَ: لقيتُ عبدَ الله بنَ عَمرِو بنِ العَاصِ رضي الله عنهما فقلتُ: «أخبرني عَن صِفَةِ رسُولِ اللهِ ﷺ فِي التَّورَاةِ؟ -لأنَّ عبدَ الله بنَ عمرٍو كانَ له عِلمٌ بالتورَاة- قَالَ: أَجَل، واللهِ إنهُ

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم» لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ص٢٥٩)، وينظر: «بدائع الفوائد» للإمام ابن القيم (٢/ ٤٠).

(٢) (٤/ برقم٢١٢٥- فتح)، وله طرفٌ في (٨/ رقم ٤٨٣٨-فتح).

لمَوصُوفٌ فِي التَّوراةِ ببَعضِ صِفَتهِ في القُرآنِ: يأيُّها النَّبي إنَّا أرسلناكَ شاهِدًا ومُبشرًا ونَذيرًا، وحِرزًا(١) للأُمِّيِّين(٢)، أنتَ عبدي ورسُولي، سَمَّيتُك المُتوكل، لَيس بفظٍّ ولا غَليظٍ، ولا سَخَّابٍ(٣) في الأسوَاقِ، ولا يدفَعُ بالسِّيئَةِ السَّيئَةَ(٤)، ولكِن يعفُو ويَغفِرُ، ولَن يَقبِضَه(٥) اللهُ حَتَّىٰ يُقيمَ به المِلَّةَ العَوجَاءَ(٦) بأن يقُولوا: لَا إلهَ إلَّا الله، فيَفتَحَ بِه(٧) أعيُنًا عُميًا(٨)، وَآذَانًا صُمًّا، وقُلُوبًا غُلفًا».

هَذِهِ هِيَ صِفَتُهُ ﷺ عِندَهُم فِي التَّورَاةِ، وَهِيَ كَذَلِكَ فِي القُرآنِ، وَفِي سِيرَةِ

(١) قال ابن حجر في «الفتح» (٤/ ٣٤٣): «بكسر المهملة؛ أي حافظًا، وأصلُ الحرز: الموضع الحصين»، وينظر «الفتح» (٨/ ٥٨٦).

(٢) أي العرب، كما في «الفتح» (٨/ ٥٨٦).

(٣) قال ابن حجر في «الفتح» (٤/ ٣٤٣): «السَّخبُ بفتح المهملة والخاء المعجمة بعدها موحَّدة، ويقالُ فيه: الصَّخب بالصَّاد المهملة بدل السِّين، وهو رفعُ الصوت بالخصام».

(٤) قال ابن حجر في «الفتح» (٨/ ٥٨٧): «هو مثل قوله تعالىٰ: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾».

(٥) أي يميته، قاله ابن حجر في المصدر السابق.

(٦) قال ابن حجر في «الفتح» (٨/ ٥٨٧): «أي حتىٰ ينفي الشرك، ويثبت التوحيد، والملة العوجاء: ملَّة الكفر».

وقال (٤/ ٣٤٣): «... ووصفها بالعوجاء لما دخل فيها من عبادة الأصنام، والمرادُ بإقامتها: أن يخرج أهلها من الكفر إلىٰ الإيمان».

(٧) أي بكلمة التوحيد، ينظر «الفتح» (٨/ ٥٨٧).

(٨) هكذا هي في الموضع الثاني من الصحيح، وجاءت في الموضع الأول علىٰ الرفع، «أعين عمي» إلىٰ آخره.

قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٨/ ٥٨٧): «وقع في رواية القابسي: «أعين عمي» بالإضافة، وكذا الكلام في الآذان والقلوب».

النَّبِيِّ ﷺ العَمَلِيَّةِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَفِي وَصفِ أَصحَابِهِ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنهُم وَأَرضَاهُم- لَهُ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَهُوَ كَمَا قَالَ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنهُ-.

هَذَا النبيُّ الكَرِيمُ ﷺ أشرقَتِ الأرضُ بِبَعثتِهِ ضِيَاءً وفَرحًا؛ رَوىٰ الترمذيُّ في «جَامِعِه»[(١)] -وقالَ: «غريبٌ صحيحٌ»، وهُو صَحيحٌ- عَن أنسٍ رضي الله عنه قالَ: «لَمَّا كانَ اليَومُ الَّذِي دَخَلَ فيهِ رسُول الله ﷺ المدينةَ، أَضَاءَ منهَا كلُّ شَيءٍ، فَلَمَّا كانَ اليومُ الَّذِي مَاتَ فيهِ أَظلَمَ منهَا كُلُّ شَيءٍ، وَ لَمَّا نَفَضنَا عَن رسُولِ الله ﷺ الأَيدِي وَ إنَّا لَفِي دَفنِهِ حتَّىٰ أَنكَرنَا قُلوبَنَا»[(٢)].

وعَن جَابرٍ رضي الله عنه: «أنَّ النبيَّ ﷺ كَانَ يقُومُ يومَ الجُمعةِ إلَىٰ شَجرةٍ أو نَخلَةٍ، فقَالتِ امرَأةٌ مِنَ الأنصَارِ أو رَجلٌ: يَا رسُولَ الله، أَلَا نَجعَلُ لكَ مِنبرًا؟ قَالَ: «**إن شِئتُم**»، فجَعلُوا لهُ مِنبرًا ﷺ، فَلمَّا كانَ يومُ الجُمعَةِ دُفع[(٣)] إلىٰ المِنبرِ

(١) (٥/ رقم ٣٦١٨) وفي «الشمائل» له (٣٧٥)، وابن ماجه في «السنن» (١/ رقم ١٦٣١)، وأحمدُ في «المسند» (٢١/ رقم ١٣٣١٢)، وابن حبان في «الصحيح» (١٤/ رقم ٦٦٣٤)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٥٧) -مختصرًا-، كلُّهم من طريق جعفر بن سليمان الضبعي عن ثابتٍ عن أنسٍ.

الحديث صحَّحهُ ابنُ حبَّان، وقال الحاكم: «صحيح علىٰ شرط مسلم»، ووافقه الذهبي، وصحَّحهُ الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ رقم ١٣٢٢) وفي غيره أيضًا.

(٢) قال العلامة الألباني في «مختصر الشمائل المحمدية» (ص١٩٧): «هذا تعبيرٌ عن اللوعة بفقد أكرم الرسل، وأنَّها ساعة شديدة حتىٰ أنكروا أنفسهم من شدَّة الحزن، وانقطاع الوحي وفقد الصُّحبة».

(٣) قال ابن حجر في «الفتح» (٦/ ٦٠٣): «بضمٍّ أوَّله بالدَّال، وللكشميهني بالراء».

فَصَاحتِ النَّخلةُ صِياحَ الصَّبيِّ، ثُم نَزَلَ النَّبيُّ ﷺ فضَمَّهُ إليهِ، يَئِنُّ أَنِينَ الصَّبيِّ الَّذي يُسَكَّنُ، قالَ -عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ-: «**كَانَت تَبكِي عَلىٰ مَا كَانَت تَسمَعُ مِنَ الذِّكرِ عِندَهَا**». رواهُ البخاريُّ في «الصَّحِيحِ»[(١)].

لِذَا كَانَ الإمامُ الحسنُ البصرِي رَحِمَهُ اللَّهُ إذا حدَّث بهذا الحديثِ بكىٰ، وقَالَ: «يَا مَعشرَ المُسلمِينَ، الخَشَبةُ تَحِنُّ إلىٰ رسُول الله ﷺ شَوقًا إِلَىٰ لقَائِهِ، فَأَنتُم أَحقُّ أن تَشتَاقُوا إِلَيهِ»[(٢)].

فهَذا النبيُّ العَظيمُ ﷺ الَّذي هَذهِ بَعضُ صِفَاتِهِ، النَّاسُ أحوجُ إلىٰ معرفَتهِ ﷺ منَ حيثُ: الإيمَانُ به وَتَصدِيقُهُ واتِّبَاعُ شَرِيعَتِهِ، وَتَعزِيرُهُ، وَتَوقِيرُهُ، وَنُصرَةُ سُنَّتِهِ، وَالذَّبُّ عَنهَا بِالنَّفسِ وَالنَّفِيسِ، وَالدِّفَاعُ عَن حِيَاضِهَا وَحِرَاسَةُ قَانُونِهِ.

والحَاجَةُ -هذهِ- هُم أَحوَجُ إِلَيهَا مِن حَاجَتِهِم إِلَىٰ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، بَل -وَاللهِ- إِنَّ حَاجَتَهُم إِلَىٰ ذَلِكَ أَحوَجُ مِن حَاجَتِهِم إِلَىٰ الهَوَاءِ الَّذِي يَتَنَفَّسُونَهُ.

قد جاءَنَا النَّبيُّ الكَرِيمُ ﷺ بِالمَحَجَّةِ البَيضَاءِ، لَيلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنهَا إِلَّا هَالِكٌ، قَالَ الله -جلَّ وعَلَا-: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [الليل: ١٤-١٦].

---

(١) (٦/ رقم ٣٥٨٤- فتح).

(٢) ينظر: «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٧٠)، و«مختصر تاريخ دمشق» (١/ ١٨٤).

ثالثًا: مَعنَى السُّنة

السُّنةُ لُغَةً: السِّيرةُ، حَسَنَةً كانت أو قَبيحةً، وتُطلَقُ أيضًا علَىٰ (الطَّريقَةِ، حَسنةً كانَت أو قَبيحةً)؛ مَأخوذٌ مِنَ (السَّنَن) وهُو الطَّريقُ.

أمَّا فِي الاصطِلَاحِ: فَهيَ عِندَ جَمَاهيرِ المُحَدِّثين: مَا أُضيفَ لِلنَّبيِّ ﷺ مِن قَولٍ أو فِعلٍ أو تَقريرٍ أو صِفَةٍ خِلْقيَّةٍ أو خُلُقيَّة.

ثُمَّ إنَّ لِلسُّنة إطلَاقَاتٍ:

الأوَّل: إن وَرَدت لَفظَة (السُّنَّة) فِي كَلامِ رَسُولِ الله ﷺ أو الصَّحابة وأئمَّة السَّلفِ؛ فإنَّما يُرادُ بِها: (كُلُّ مَا جَاء فِي الكتَابِ والسُّنَّةِ) أو: (المعنىٰ الشَّرعي العَام المشتمل علَىٰ الأحكَامِ عِلميَّة أو عَمَليَّة)؛ كما فِي قوله ﷺ: «فَمَن رَغِبَ عَن سُنَّتي فَلَيسَ مِنِّي» مُتَّفقٌ عليهِ.

الثَّانِي: أنَّها تُطلَقُ فِي مُقَابِلِ البِدعَةِ، وعَمَلِ الصَّحابة، كمَا ورد فِي حَديث العِربَاض رضي الله عنه -السَّابق- وفيه قولهُ ﷺ: «فإنَّه مَن يَعش منكُم فَسيرىٰ اختِلَافًا كثيرًا؛ فَعليكُم بِسُنَّتي وسُنَّة الخُلَفاء المَهديِّين الرَّاشدين، تَمَسَّكُوا بِها، وَعَضُّوا عَليهَا بِالنَّواجذِ، وإيَّاكُم ومُحدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإنَّ كُلَّ مُحدَثَةٍ بِدعَةٌ، وكُلَّ بِدعَةٍ ضَلَالَةٌ».

قُلتُ: ومنهُ قَولُكَ: (فُلَانٌ عَلَىٰ السُّنَّةِ) إذَا كَانَ مُتَّبِعًا غَيرَ مُبتَدِعٍ، ومنهُ مَا جَاء فِي تَآلِيفِ أَهلِ العِلمِ كُتُب «السُّنَّة» كَـ: «السُّنَّةِ» لعَبد الله بنِ أحمَد، و«صَرِيحِ السُّنَّةِ» للطَّبري، و«السُّنَّةِ» لِلخَلَّالِ وغَيرها.

الثَّالِث: أَنَّهَا تُطلَقُ فِيمَا يُقَابِلُ المَندُوبَ وَالمُستَحب وَالفَرض، وهُو إطلَاقُ الفُقَهاء، فَهِيَ عِندَهُم أَحد الأَحكَامِ التَّكلِيفِيَّةِ الخَمسَةِ، مِمَّا يُثَابُ عَلَىٰ فِعلهِ وَلَا يُعَاقَبُ عَلَىٰ تركِهِ.

الرَّابع: تُطلَقُ وَيُرادُ بِهَا أَنَّها دَلِيلٌ مِن أَدِلَّةِ الأَحكَامِ، وأَصلٌ مِنَ الأُصُولِ الشَّرعيَّة؛ وهيَ كَقَولِهم: هَذهِ المَسأَلَةُ دلَّ عليهَا الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ والإجمَاعُ.

وأشمَلُ الإطلَاقَاتِ هُو: إطلَاقُ المُحدِّثينَ كَمَا سبَقَ بَيَانُهُ، وَسَببُ الفَرقِ بَينَ إطلَاقهِم وَإطلَاقِ الأُصُوليِّينَ هُو: أنَّ المُحَدِّثين غَرَضُهُم مَعرفة مَا كان عليهِ رَسولُ اللهِ ﷺ فِي شَأنهِ كُلِّهِ؛ لأَنَّه الأُسوَةُ والقُدوَةُ، وَمِن ثَمَّ نَقْلُ ذَلكَ للنَّاسِ، سَواءٌ أَثْبَتَ المَنقُول حُكمًا شَرعيًّا أم لَا، وأمَّا الأُصُوليونَ فَيبحَثُونَ عمَّا تَثبُتُ بِهِ الأَحكَام، فَلِذَا لا يُدخِلُونَ (الصِّفَة) فِي حَدِّ السُّنَّةِ، والله أعلمُ.

رابعًا: كمالُ شَريعَتهِ ﷺ

سَبَقَ فِي حَدِيثِ عَبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو -رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنهُ- المُتَقَدِّم، أَنَّهُ قَالَ فِي صِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي التَّورَاةِ: «**أَنَّ اللهَ لَن يَقبِضَهُ حَتَّىٰ يُقِيمَ بِهِ المِلَّةَ العَوجَاءَ**».

فَمَا مَاتَ ﷺ إِلَّا وَقَد أَكمَلَ الرِّسَالَةَ، وَأَتَمَّ البَيَانَ، وَأَظهَرَ الحُجَّةَ، وَأَبَانَ المَحَجَّةَ، فَوَاللهِ مَا مِن خَيرٍ إِلَّا وَدَلَّ الأُمَّةَ عَلَيهِ، وَمَا مِن شَرٍّ إِلَّا وَحَذَّرَنَا مِنهُ ﷺ، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: من الآية ٣]، فَهَذِهِ شَهَادَةٌ مِن رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرضِ بِأَنَّهُ قَد أَتَمَّ الرِّسَالَةَ، وَأَكمَلَ الدِّينَ لَنَا بِبِعثَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمَا قَبَضَهُ سُبحانَهُ حَتَّىٰ أَتَمَّ بِهِ الدِّينَ.

وَيَقُولُ ﷺ فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ: «**تَرَكتُ فِيكُم مَا لَن تَضِلُّوا بَعدَهُ إِنِ اعتَصَمتُم بِهِ: كِتَابَ اللهِ، وَأَنتُم تُسأَلُونَ عَنِّي، فَمَاذَا أَنتُم قَائِلُونَ؟** قَالُوا: نَشهَدُ أَنَّكَ قَد بَلَّغتَ وَأَدَّيتَ، وَنَصَحتَ».

فَيُشِيرُ -عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- بِأُصبُعِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ وَيَنكُتُهَا إِلَىٰ الأَرضِ، يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ اشهَد، أَلَا هَل بَلَّغتُ، اللَّهُمَّ اشهَد**» ثلاث مرَّات، أخرجه مسلمٌ.

فَهَذِهِ شَهَادَةٌ أَيضًا مِن خَيرِ خَلقِ اللهِ بَعدَ الأَنبِيَاءِ، صَحَابَةُ النَّبِيِّ ﷺ بِأَنَّهُ بَلَّغَ وَأَدَّىٰ وَنَصَحَ ﷺ، شَهَادَةُ خَيرِ القُرُونِ بِذَلِكَ.

فَشَرِيعَةُ النَّبِيِّ ﷺ تَتَّصِفُ بِالكَمَالِ وَالعُمُومِ وَالبَقَاءِ.

وَلَا أُطِيلُ عَلَيكُم، وَكَمَا يُقَالُ: «قَطَعَت جَهِيزَةُ قَولَ كُلِّ خَطِيبٍ».

فهذَا إِمَامٌ مِن أَئِمَّةِ أَهلِ السُّنَّةِ وَعَلَمٌ مِن أَعلَامِهَا وَهُوَ الإِمَامُ ابنُ القَيِّمِ يقولُ في كتَابِهِ العظيم «إِعلَام المُوَقِّعِينَ»[1]؛ مُبَيِّنًا كَمَالَ شَرِيعَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَتَأَمَّل وَتَدَبَّر: «وَهَذَا الأَصلُ مِن أَهَمِّ الأُصُولِ وَأَنفَعِهَا، وَهُوَ مَبنِيٌّ عَلَىٰ حَرفٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ عُمُومُ رِسَالَتِهِ ﷺ بِالنِّسبَةِ إِلَىٰ كُلِّ مَا يَحتَاجُ إِلَيهِ العِبَادُ فِي مَعَارِفِهِم وَعُلُومِهِم وَأَعمَالِهِم، وَأَنَّهُ لَم يُحوِجِ أُمَّتَهُ إِلَىٰ أَحَدٍ بَعدَهُ، وَإِنَّمَا حَاجَتُهُم إِلَىٰ مَن يُبَلِّغُهُم عَنهُ مَا جَاءَ بِهِ، فَلِرِسَالَتِهِ عُمُومَانِ مَحفُوظَانِ لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيهِمَا تَخصِيصٌ: عُمُومٌ بِالنِّسبَةِ إِلَىٰ المُرسَلِ إِلَيهِم.

وَعُمُومٌ بِالنِّسبَةِ إِلَىٰ كُلِّ مَا يَحتَاجُ إِلَيهِ مَن بُعِثَ إِلَيهِ فِي أُصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ.

فَرِسَالَتُهُ كَافِيَةٌ شَافِيَةٌ عَامَّةٌ، لَا تُحوِجُ إِلَىٰ سِوَاهَا، وَلَا يَتِمُّ الإِيمَانُ بِهِ إِلَّا بِإِثبَاتِ عُمُومِ رِسَالَتِهِ فِي هَذَا وَهَذَا، فَلَا يَخرُجُ أَحَدٌ مِن المُكَلَّفِينَ عَن رِسَالَتِهِ، وَلَا يَخرُجُ نَوعٌ مِن أَنوَاعِ الحَقِّ الَّذِي تَحتَاجُ إِلَيهِ الأُمَّةُ فِي عُلُومِهَا وَأَعمَالِهَا

(١) (٤/ ٣٧٦).

عَمَّا جَاءَ بِهِ، وَقَد تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَمَا طَائِرٌ يُقَلِّبُ جَنَاحَيهِ فِي السَّمَاءِ إِلَّا ذَكَرَ لِلأُمَّةِ مِنهُ عِلمًا.

وَعَلَّمَهُم كُلَّ شَيءٍ حَتَّىٰ آدَابَ التَّخَلِّي وَآدَابَ الجِمَاعِ وَالنَّومِ وَالقِيَامِ وَالقُعُودِ، وَالأَكلِ وَالشُّربِ، وَالرُّكُوبِ وَالنُّزُولِ، وَالسَّفَرِ وَالإِقَامَةِ، وَالصَّمتِ وَالكَلَامِ، وَالعُزلَةِ وَالخُلطَةِ، وَالغِنَىٰ وَالفَقرِ، وَالصِّحَّةِ وَالمَرَضِ، وَجَمِيعِ أَحكَامِ الحَيَاةِ وَالمَوتِ.

وَوَصَفَ لَهُم العَرشَ وَالكُرسِيَّ وَالمَلَائِكَةَ وَالجِنَّ وَالنَّارَ وَالجَنَّةَ وَيَومَ القِيَامَةِ وَمَا فِيهِ حَتَّىٰ كَأَنَّهُ رَأيُ عَينٍ.

وَعَرَّفَهُم مَعبُودَهُم وَإِلَهَهُم أَتَمَّ تَعرِيفٍ حَتَّىٰ كَأَنَّهُم يَرَونَهُ وَيُشَاهِدُونَهُ بِأَوصَافِ كَمَالِهِ وَنُعُوتِ جَلَالِهِ.

وَعَرَّفَهُم الأَنبِيَاءَ وَأُمَمَهُم وَمَا جَرَىٰ لَهُم، وَمَا جَرَىٰ عَلَيهِم مَعَهُم حَتَّىٰ كَأَنَّهُم كَانُوا بَينَهُم.

وَعَرَّفَهُم مِن طُرُقِ الخَيرِ وَالشَّرِّ دَقِيقَهَا وَجَلِيلَهَا مَا لَم يُعَرِّفهُ نَبِيٌّ لِأُمَّتِهِ قَبلَهُ.

وَعَرَّفَهُم ﷺ مِن أَحوَالِ المَوتِ وَمَا يَكُونُ بَعدَهُ فِي البَرزَخِ وَمَا يَحصُلُ فِيهِ مِن النَّعِيمِ وَالعَذَابِ لِلرُّوحِ وَالبَدَنِ مَا لَم يُعَرِّف بِهِ نَبِيٌّ غَيرُهُ.

وَكَذَلِكَ عَرَّفَهُم ﷺ مِن أَدِلَّةِ التَّوحِيدِ وَالنُّبُوَّةِ وَالمَعَادِ وَالرَّدِّ عَلَىٰ جَمِيعِ فِرَقِ أَهلِ الكُفرِ وَالضَّلَالِ مَا لَيسَ لِمَن عَرَفَهُ حَاجَةٌ مِن بَعدِهِ ، اللَّهُمَّ إِلَّا إِلَىٰ

مَن يُبَلِّغُهُ إيَّاهُ وَيُبَيِّنُهُ وَيُوَضِّحُ مِنهُ مَا خَفِيَ عَلَيهِ.

وَكَذَلِكَ عَرَّفَهُم ﷺ مِن مَكَايِدِ الحُرُوبِ وَلِقَاءِ العَدُوِّ وَطُرُقِ النَّصرِ وَالظَّفرِ مَا لَو عَلِمُوهُ وَعَقَلُوهُ وَرَعَوهُ حَقَّ رِعَايَتِهِ لَم يَقُم لَهُم عَدُوٌّ أَبَدًا.

وَكَذَلِكَ عَرَّفَهُم ﷺ مِن مَكَايِدِ إبلِيسَ وَطُرُقِهِ الَّتِي يَأتِيهِم مِنهَا وَمَا يَتَحَرَّزُونَ بِهِ مِن كَيدِهِ وَمَكرِهِ وَمَا يَدفَعُونَ بِهِ شَرَّهُ مَا لَا مَزِيدَ عَلَيهِ.

وَكَذَلِكَ عَرَّفَهُم ﷺ مِن أَحوَالِ نُفُوسِهِم وَأَوصَافِهَا وَدَسَائِسِهَا وَكَمَائِنِهَا مَا لَا حَاجَةَ لَهُم مَعَهُ إلَىٰ سِوَاهُ.

وَكَذَلِكَ عَرَّفَهُم ﷺ مِن أُمُورِ مَعَايِشِهِم مَا لَو عَلِمُوهُ وَعَمِلُوهُ لَاستَقَامَت لَهُم دُنيَاهُم أَعظَمَ استِقَامَةٍ.

وَبِالجُملَةِ فَجَاءَهُم بِخَيرِ الدُّنيَا وَالآخِرَةِ بِرُمَّتِهِ، وَلَم يُحوِجهُم اللهُ إلَىٰ أَحَدٍ سِوَاهُ، فَكَيفَ يُظَنُّ أَنَّ شَرِيعَتَهُ الكَامِلَةَ الَّتِي مَا طَرَقَ العَالَمَ شَرِيعَةٌ أَكمَلُ مِنهَا نَاقِصَةٌ تَحتَاجُ إلَىٰ سِيَاسَةٍ خَارِجَةٍ عَنهَا تُكَمِّلُهَا، أَو إلَىٰ قِيَاسٍ أَو حَقِيقَةٍ أَو مَعقُولٍ خَارِجٍ عَنهَا؟

وَمَن ظَنَّ ذَلِكَ فَهُوَ كَمَن ظَنَّ أَنَّ بِالنَّاسِ حَاجَةً إلَىٰ رَسُولٍ آخَرَ بَعدَهُ، وَسَبَبُ هَذَا كُلِّهِ خَفَاءُ مَا جَاءَ بِهِ عَلَىٰ مَن ظَنَّ ذَلِكَ وَقِلَّةُ نَصِيبِهِ مِن الفَهمِ الَّذِي وَفَّقَ اللهُ لَهُ أَصحَابَ نَبِيِّهِ الَّذِينَ اكتَفَوا بِمَا جَاءَ بِهِ، وَاستَغنَوا بِهِ عَمَّا سِوَاهُ، وَفَتَحُوا بِهِ القُلُوبَ وَالبِلَادَ، وَقَالُوا: هَذَا عَهدُ نَبِيِّنَا إلَينَا، وَهُوَ عَهدُنَا إلَيكُم» انتهىٰ كلامهُ -رحمه الله وغفرَ لَهُ-.

قُل لِي -بِرَبِّكَ- يا عبدَ الله: مَا الَّذِي بَقِيَ مِن أَمرِ الدِّينِ دَقِيقِهِ وَجَلِيلِهِ لَم يُبَيِّنهُ النَّبِيُّ ﷺ؟

وَاللهِ مَا بَقِيَ شَيءٌ، فَكَيفَ تُطلَبُ النَّجَاةُ وَتُطلَبُ السَّلَامَةُ فِي غَيرِ هَديِهِ ﷺ، وَفِي غَيرِ اتِّبَاعِ سُنَّتِهِ؟ فِي سِيَاسَةٍ، أَو فِي أَفكَارٍ مُنحَلَّةٍ، أَو طَرَائِقَ مُبتَدَعَةٍ، تُسلَكُ هُنَا وَهُنَاكَ يُرَادُ مِن وَرَائِهَا النَّجَاةُ -زَعَمُوا-، فَوَاللهِ لَا لِلإِسلَامِ نَصَرُوا، وَلَا لِأَعدَائِهِ كَسَرُوا، وَلَا حَولَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ.

خَامِسًا: ذِكرُ جُملَةٍ مِن ثمَرَاتِ التَّمَسُّكِ بِالسُّنَّةِ، وَمِنهَا:

الثَّمرةُ الأولى: أنَّ الْمُتَمَسِّكَ بِهَا مُتَّبِعٌ لِلأَمرِ الإِلَهِيِّ، وهَذا مِمَّا يُحبُّهُ اللهُ وَيَرضَاهُ

تَقَدَّمَ مَعَنَا -أَيُّهَا الأَحِبَّةُ- ذِكرُ جُملَةٍ مِن نُصُوصِ الوَحيَينِ الآمِرَةِ وَالحَاثَّةِ وَالمُحَذِّرَةِ، آمِرَةٌ بِاتِّبَاعِهِ ﷺ ومُحَذِّرَةٌ مِن مُخَالَفَتِهِ، كُلُّ هَذِهِ الأَدِلَّةُ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ اتِّبَاعَ النَّبِيِّ ﷺ قُربَةٌ وَعِبَادَةٌ، يُحِبُّهَا اللهُ مِن عَبدِهِ أَن يَأتِيَهَا.

وَالعِبَادَةُ: اسمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرضَاهُ مِنَ الأَقوَالِ وَالأَفعَالِ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ.

فَمَا أَمَرَكَ اللهُ بِهِ إِلَّا وَهُوَ يُحِبُّهُ، وَكَونُهُ يُحِبُّهُ سُبحَانَهُ فَهُوَ عِبَادَةٌ، فَالمُتَّبِعُ إِذَن المُتَمَسِّكُ بِالسُّنَّةِ بِصِدقٍ وَإِخلَاصٍ مُتَّبِعٌ لِلأَمرِ الإِلَهِيِّ، مُتَقَرِّبٌ للهِ ﷻ بِتَنفِيذِ أَمرِهِ، وَالانتِهَاءِ عَن نَهيِهِ، وَهَذَا -أَعنِي: المُتَمَسِّكَ- هُوَ المُهَاجِرُ حَقِيقَةً إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

قالَ الإمامُ ابنُ القيِّم في «الرِّسالة التَّبوكيَّة»[1] مُبَيِّنًا مَعنَىٰ الهِجرَةِ إِلَىٰ

(١) (ص ٤٢).

رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَيفَ يَكُونُ المَرءُ كَذَلِكَ، قَالَ: «وَأَمَّا الهِجرَةُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَعِلمٌ لَم يَبقَ مِنهُ سِوَىٰ اسمِهِ، وَمَنهَجٌ لَم تَترُك بُنَيَّاتُ الطَّرِيقِ سِوَىٰ رَسمِهِ، وَمَحَجَّةٌ سَفَت عَلَيهَا السَّوَافِي؛ فَطَمَسَت رُسُومَهَا، وَغَارَت عَلَيهَا الأَعَادِي؛ فَغَوَّرَت مَنَاهِلَهَا وَعُيُونَهَا.

فَسَالِكُهَا غَرِيبٌ بَينَ العِبَاد، فَرِيدٌ بَينَ كُلِّ حَيٍّ وَنَاد، بَعِيدٌ عَلَىٰ قُربِ المَكَان، وَحِيدٌ عَلَىٰ كَثرَةِ الجِيرَان، مُستَوحِشٌ مِمَّا بِهِ يَستَأنِسُون، مُستَأنِسٌ مِمَّا بِهِ مُستَوحِشُون، مُقِيمٌ إِذَا ظَعَنُوا، ظَاعِنٌ إِذَا قَطَنُوا، مُنفَرِدٌ فِي طَرِيقِ طَلَبِهِ، لَا يَقَرُّ قَرَارُهُ حَتَّىٰ يَظفَرَ بِأَرَبِهِ، فَهُوَ الكَائِنُ مَعَهُم بِجَسَدِهِ، البَائِنُ مِنهُم بِمَقصِدِهِ، نَامَت فِي طَلَبِ الهُدَىٰ أَعيُنُهُم، وَمَا لَيلُ مَطِيَّتِهِ بِنَائِمٍ، وَقَعَدُوا عَنِ الهِجرَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَهُوَ فِي طَلَبِهَا مُشَمِّرٌ قَائِمٌ، يَعِيبُونَهُ بِمُخَالَفَةِ آرَائِهِم، وَيُزرُونَ عَلَيهِ إِزرَاءَهُم عَلَىٰ جَهَالَاتِهِم وَأَهوَائِهِم، قَد رَجَمُوا فِيهِ بِالظُّنُونِ، وَأَحدَقُوا فِيهِ العُيُونَ، وَتَرَبَّصُوا بِهِ رَيبَ المَنُونِ، ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة:٥٢]، ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء:١١٢]...».

إِلَىٰ أَن قَالَ: «وَالمَقصُودُ: أَنَّ هَذِهِ الهِجرَةَ النَّبَوِيَّةَ شَأنُهَا شَدِيدٌ، وَطَرِيقُهَا عَلَىٰ غَيرِ المُعتَادِ بَعِيدٌ.

وَلَعَمرُ اللهِ مَا هِيَ إِلَّا نُورٌ يَتَلَأْلَأُ، وَلَكِن أَنتَ ظَلَامُهُ، وَبَدرٌ أَضَاءَ مَشَارِقَ الأَرضِ وَمَغَارِبَهَا وَلَكِن أَنتَ غَيمُهُ وَقَتَامُهُ، وَمَنهَلٌ عَذبٌ صَافٍ وَأَنتَ كَدَرُهُ، وَمُبتَدَأٌ لِخَبَرٍ عَظِيمٍ وَلَكِن لَيسَ عِندَكَ خَبَرُهُ.

فَاسمَعِ الآنَ شَأنَ هَذِهِ الهِجرَةِ وَالدَّلَالَةِ عَلَيهَا، وَحَاسِب مَا بَينَكَ وَبَينَ اللهِ، هَل أَنتَ مِنَ المُهَاجِرِينَ لَهَا؟ أَوِ المُهَاجِرِينَ إِلَيهَا؟

فَحَدُّ هَذِهِ الهِجرَةِ سَفَرُ النَّفسِ فِي كُلِّ مَسأَلَةٍ مِن مَسَائِلِ الإِيمَانِ، وَمَنزِلٍ مِن مَنَازِلِ القُلُوبِ، وَحَادِثٍ مِن حَوَادِثِ الأَحكَامِ إِلَىٰ مَعدَنِ الهُدَىٰ، وَمَنبَعِ النُّورِ المُتَلَقَّىٰ مِن فَمِ الصَّادِقِ المَصدُوقِ ﷺ الَّذِي ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣-٤].

فَكُلُّ مَسأَلَةٍ طَلَعَت عَلَيهَا شَمسُ رِسَالَتِهِ وَإِلَّا فَاقذِف بِهَا فِي بَحرِ الظُّلُمَاتِ، وَكُلُّ شَاهِدٍ عَدَّلَهُ هَذَا المُزَكِّي وَإِلَّا فَعُدَّهُ مِن أَهلِ الرِّيَبِ وَالتُّهَمَاتِ، هَذَا هُوَ حَدُّ هَذِهِ الهِجرَةِ». انتهىٰ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

نَحـنُ وَإِيَّـاكُم نَمُـوتُ فَمَـا أفلَـحَ عـندَ الحِـسَابِ مَـن نَـدِمَا

الثَّمرةُ الثَّانيةُ: أنَّ الْمُتَمسِّكَ بِهَا مُحَصِّلٌ للهِدَايَةِ وَالسَّلامَةِ مِنَ الضَّلالِ وَالزَّيغِ

وَهَذَا أَمرٌ بَيِّنٌ أَيضًا، وَمَرَّ مَعَنَا بَيَانُهُ فِي حَدِيثِ جَابِرٍ ﷺ عِندَ مُسلِمٍ فِي «الصَّحِيحِ»، قَولُهُ ﷺ: «تَرَكتُ فِيكُم مَا لَن تَضِلُّوا إِنِ اعتَصَمتُم بِهِ: كِتَابَ اللهِ».

وَمَاذَا فِي كِتَابِ اللهِ؟ الأَمرُ بِاتِّبَاعِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

وَمِن ذَلِكَ قَولُ اللهِ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١].

قَالَ الإِمَامُ ابنُ كَثِيرٍ عِندَ هَذِهِ الآيَةِ: «هَذِهِ الآيَةُ أَصلٌ كَبِيرٌ فِي التَّأَسِّي بِرَسُولِ اللهِ -عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- فِي أَقوَالِهِ وَأَفعَالِهِ وَأَحوَالِهِ؛ وَلِهَذَا أَمَرَ اللهُ سُبحَانَهُ النَّاسَ بِالتَّأَسِّي بِالنَّبِيِّ -عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- يَومَ الأَحزَابِ فِي صَبرِهِ وَمُصَابَرَتِهِ وَمُرَابَطَتِهِ، وَمُجَاهَدَتِهِ وَانتِظَارِ الفَرَجِ مِن رَبِّهِ»[(١)]. اهـ

فَمَن تَمَسَّكَ بِالسُّنَّةِ نَجَا مِن هَذَا الزَّيغِ وَمِن هَذَا الضَّلَالِ، وَمَا أَكثَرَهُ!!

قَالَ الإِمَامُ الزُّهرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ -كَمَا عِندَ الدَّارِمِيِّ[(٢)] بِإِسنَادٍ صَحِيحٍ-: «كَانَ

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٤٧٥).

(٢) (١/ ٤٤).

مَن مَضىٰ مِن عُلَمَائِنَا يَقُولُ: الاعتِصَامُ بِالسُّنَّةِ نَجَاةٌ».

قَالَ الإِمَامُ مَالِكٌ بن أنسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «السُّنَّةُ مِثلُ سَفِينَةِ نُوحٍ؛ مَن رَكِبَهَا نَجَا، وَمَن تَخَلَّىٰ عَنهَا هَلَكَ».

وقَالَ الصِّدِّيقُ الأَكبَرُ أَبُو بَكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَستُ تَارِكًا شَيئًا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعمَلُ بِهِ إِلَّا عَمِلتُ بِهِ، وَإِنِّي لَأخشَىٰ إِن تَرَكتُ شَيئًا مِن أَمرِهِ ﷺ أَن أَزِيغَ».

ومَن هَذَا؟!!

إِنَّهُ الصِّدِّيقُ الأَكبَرُ!

عَلَّقَ الإِمَامُ ابنُ بَطَّة فِي «الإِبَانَة الكُبرَىٰ»[1] عَلَىٰ كَلَامِ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بقولِهِ: «هَذَا يَا إِخوَانِي الصِّدِّيقُ الأَكبَرُ يَتَخَوَّفُ عَلَىٰ نَفسِهِ الزَّيغَ إِن هُوَ خَالَفَ شَيئًا مِمَّا أَمَرَ بِهِ النَّبِيُّ -عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، فَمَا عَسَىٰ أَن يَكُونَ مِن زَمَانٍ أَضحَىٰ أَهلُهُ يَستَهزِئُونَ بِنَبِيِّهِم وَبِأَوَامِرِهِ، وَيَتَبَاهَونَ بِمُخَالَفَتِهِ، وَيَسخَرُونَ مِن سُنَّتِهِ، نَسأَلُ اللهَ عِصمَةً مِنَ الزَّلَلِ، وَنَجَاةً مِن سُوءِ العَمَلِ». اهـ

وأيضًا مَن تمسَّكَ بها بصدقٍ هُدي إِلَىٰ الصِّراطِ المُستَقِيم، قالَ تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورىٰ: ٥٢].

---

(١) (١/ ٢٤٦).

قال العَلامة السَّعدي فِي «تَفسيره»: «وأمَّا إثباتُ الهداية للرَّسولِ ﷺ في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فَتلكَ هِدَايَةُ البَيَانِ وَالإرشَادِ، فَالرَّسولُ ﷺ يُبيِّنُ الصِّرَاطَ المُستَقِيم، وَ يُرِّغبُ فيهِ، وَ يَبذُلُ جهدَهُ فِي سُلُوك الخَلقِ لَهُ.

وَأمَّا كَونُهُ يَخلُقُ فِي قُلُوبهم الإيمَان، وَ يُوفِّقهم بِالفِعلِ، فَحَاشَىٰ وَكَلَّا».

وَالصِّراطُ فَسَّرته الآية عَقبهَا وهِيَ قَولُهُ تعالىٰ: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [الشورىٰ:٥٣].

قَالَ الإِمَامُ ابنُ قُدَامَة رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «ذَمِّ التَّأوِيلِ»[1]: «لِأَنَّهُ ﷺ عَلَىٰ الصِّرَاطِ المُستَقِيمِ فَسَالِكُ سَبِيلِهِ سَالِكٌ صِرَاطَ اللهِ المُستَقِيمَ لَا مَحَالَةَ، فَيَجِبُ عَلَينَا اتِّبَاعُهُ، وَالوُقُوفُ حَيثُ وَقَفَ، وَالسُّكُوتُ عَمَّا عَنهُ سَكَتَ». اهـ

ويَقُولُ الإِمَامُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «إِغَاثَة اللَّهفَان مِن مَصَايد الشَّيطَان»[2]:

«الفِتنَةُ نَوعَانِ:

* فِتنَةُ الشُّبُهَاتِ؛ وَهِيَ أَعظَمُ الفِتنَتَينِ.

* وَفِتنَةُ الشَّهَوَاتِ، وَقَد يَجتَمِعَان لِلعَبدِ، وَقَد يَنفَرِدُ بِإِحدَاهُمَا.

فَفِتنَةُ الشُّبُهَاتِ تَتَوَلَّدُ مِن ضَعفِ البَصِيرَةِ، وَقِلَّةِ العِلمِ، وَلَاسِيَّمَا إِذَا اقتَرَنَ

(١) (ص٣٨).

(٢) (٢/ ٨٨٧).

بِذَلِكَ فَسَادُ القَصدِ، وَحُصُولُ الهَوَىٰ، فَهُنَالِكَ الفِتنَةُ العُظمَىٰ وَالمُصِيبَةُ الكُبرَىٰ، فَقُل مَا شِئتَ فِي ضَلَالِ سَيِّئِ القَصدِ، الحَاكِمِ عَلَيهِ الهَوَىٰ لَا الهُدَىٰ مَعَ ضَعفِ بَصِيرَتِهِ، وَقِلَّةِ عِلمِهِ بِمَا بَعَثَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ ﷺ ... وَهَذِهِ الفِتنَةُ مَآلُهَا إِلَىٰ الكُفرِ وَالنِّفَاقِ، وَهِيَ فِتنَةُ المُنَافِقِينَ، وَفِتنَةُ أَهلِ البِدَعِ عَلَىٰ حَسبِ مَرَاتِبِ بِدَعِهِم، فَجَمِيعُهُمُ ابتَدَعُوا مِن فِتنَةِ الشُّبُهَاتِ الَّتِي اشتَبَهَ عَلَيهِم فِيهَا الحَقُّ بِالبَاطِلِ وَالهُدَىٰ بِالضَّلَالِ.

وَلَا يُنَجِّي مِن هَذِهِ الفِتنَةِ إِلَّا تَجرِيدُ اتِّبَاعِ الرَّسُولِ ﷺ وَتَحكِيمُهُ فِي دِقِّ الدِّينِ وَجِلِّهِ، ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ، عَقَائِدِهِ وَأَعمَالِهِ، حَقَائِقِهِ وَشَرَائِعِهِ، فَيَتَلَقَّىٰ عَنهُ حَقَائِقَ الإِيمَانِ، وَشَرَائِعَ الإِسلَامِ، وَمَا يُثبِتُهُ للهِ مِنَ الصِّفَاتِ وَالأَفعَالِ وَالأَسمَاءِ وَمَا يَنفِيهِ عَنهُ، كَمَا يَتَلَقَّىٰ عَنهُ وُجُوبَ الصَّلَوَاتِ وَأَوقَاتَهَا وَأَعدَادَهَا، وَمَقَادِيرَ نُصُبِ الزَّكَوَاتِ، وَمُستَحِقِّيهَا، وَوُجُوبَ الوُضُوءِ وَالغُسلِ مِنَ الجَنَابَةِ، وَصَومَ رَمَضَانَ، فَلَا يَجعَلُهُ رَسُولًا فِي شَيءٍ مِن أُمُورِ الدِّينِ دُونَ شَيءٍ، بَل هُوَ رَسُولٌ فِي كُلِّ شَيءٍ تَحتَاجُ إِلَيهِ الأُمَّةُ فِي العِلمِ وَالعَمَلِ، لَا يُتَلَقَّىٰ إِلَّا عَنهُ، وَلَا يُؤخَذُ إِلَّا مِنهُ، الهُدَىٰ كُلُّهُ دَائِرٌ عَلَىٰ أَقوَالِهِ، وَأَفعَالِهِ، وَكُلُّ مَا خَرَجَ عَنهَا فَهُوَ ضَلَالٌ». اهـ

وَقَالَ أيضًا رَحِمَهُ اللهُ[1]: «المَسأَلَةُ العشرونَ: وَهِيَ: مَا هُو الصِّراطُ المُستَقِيم؟ فنَذكُرُ فِيهِ قَولًا وَجِيزًا؛ فإِنَّ النَّاسَ تَنَوَّعَت عِبَاراتهم فيهِ... وَحَقِيقَتُهُ شَيءٌ واحدٌ وهُو:

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ٤٠).

طَرِيقُ اللهِ الَّذي نَصَبهُ لِعِبَادهِ عَلَىٰ أَلسُن رُسُلهِ، وَجَعلَهُ مُوصِلًا لِعَبادهِ إِليهِ، وَ لَا طَرِيقَ لَهُم إِليهِ سِوَاهُ، بَل الطُّرقُ كُلُّهَا مَسدودة إِلَّا هَذا؛ وهُو إفرادهُ بالعُبُودِيَّةِ، وَ إِفرادُ رَسُولهِﷺ بالطَّاعَةِ، فَلا يُشركُ بِهِ أَحَدًا في عُبُودِيَّتِهِ، وَلَا يُشرِكُ بِرَسُولهِﷺ أَحَدًا فِي طَاعتهِ، فَيُجَرِّد التَّوحيدَ وَيُجرِّد مُتَابعةَ الرَّسُولِﷺ».

الثَّمَرَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ الْمُتَمَسِّكَ بِالسُّنَّةِ مَعصُومٌ -بِإِذنِ اللهِ تَعَالَى- تَحقِيقًا، وَآمِنٌ مِنَ الوُقُوعِ فِي الاختِلَافِ الْمَذمُومِ وَالفُرقَةِ الْمَذمُومَةِ

المُتَأَمِّلُ فِي نُصُوصِ الوَحيَينِ وَالمَنقُولِ عَن سَلَفِ الأُمَّةِ، يَجِدُ حَقِيقَةً مَاثِلَةً أَمَامَهُ، وَهِيَ الأَمرُ بِالاجتِمَاعِ وَالائتِلَافِ عَلَىٰ الحَقِّ وَبِالحَقِّ، وَالنَّهيُ عَنِ التَّفَرُّقِ المَبنِيِّ عَلَىٰ مُخَالَفَةِ الحَقِّ.

فاللهُ -جَلَّ وَعَلَا- أَمَرَ بِالاعتِصَامِ بِحَبلِهِ المَتِينِ، وَحَذَّرَنَا مِن تَركِهِ، فقالَ سُبحانه: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴾[آل عمران:١٠٣] ، وَقَالَ: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٣٢ ﴾[الروم: ٣١-٣٢] .

وَقَالَ: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[الأنعام:١٥٣] .

وَيَقُولُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾[الأنعام:١٥٩] ، والآيَاتُ كَثِيرَةٌ.

وَجَاءَ عَنهُ ﷺ فِي صَحِيحِ مُسلِمٍ[١] قَولُهُ: «إِنَّ اللهَ يَرضَىٰ لَكُم ثَلَاثًا، وَيَكرَهُ ثَلَاثًا: يَرضَىٰ لَكُم أَن تَعبُدُوهُ وَلَا تُشرِكُوا بِهِ شَيئًا، وَأَن تَعتَصِمُوا بِحَبلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَيَكرَهُ لَكُم قِيلَ وَقَالَ وَكَثرَةَ السُّؤَالِ وَإِضَاعَةَ المَالِ».

زَادَ الإِمَامُ أَحمَدُ[٢]: «وَأَن تُنَاصِحُوا مَن وَلَّاهُ اللهُ أَمرَكُم».

قَالَ الحَافِظُ ابنُ عَبدِ البَرِّ رَحِمَهُ اللهُ عندَ هَذا الحَدِيثِ فِي «التَّمهِيدِ»[٣]: «وفيهِ الحَضُّ عَلَىٰ الاعتِصَامِ وَ التَّمسُّكِ بِحَبلِ اللهِ فِي حَالِ اجتِمَاعٍ وَائتِلَافٍ، وحَبلُ اللهِ فِي هَذا المَوضِعِ فيهِ قَولَانِ:

أَحَدهمَا: كِتَابُ اللهِ.

وَالآخرُ: الجَمَاعَةُ، وَلَا جَمَاعَةَ إِلَّا بِإِمَامٍ.

وهُو عندي مَعنًىٰ مُتَدَاخِلٌ مُتَقَارِبٌ؛ لأَنَّ كتابَ اللهِ يَأمُرُ بِالأُلفَةِ، وَيَنهَىٰ عَنِ التَّفَرُّقِ...» ثُمَّ ذَكَرَ بَعض الآياتِ المُتَقدِّمَةِ.

وقَالَ الإِمَامُ ابنُ تَيمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ فِي «مِنهَاجِ السُّنَّةِ»[٤] -مُفَسِّرًا حَبلَ اللهِ-: «فُسِّرَ حَبلُهُ بِكِتَابِهِ، وَبِدِينِهِ، وَبِالإِسلَامِ، وَبِالإِخلَاصِ، وَبِأَمرِهِ، وَبِعَهدِهِ، وَبِطَاعَتِهِ،

(١) (٣/ ١٣٤٠).

(٢) «المسند» (٢/ ٣٦٧).

(٣) (٢١/ ٢٧٢).

(٤) (٥/ ١٣٤).

وَبِالجَمَاعَةِ، وَكُلُّ هَذِهِ مَنقُولَةٌ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُم بِإِحسَانٍ إِلَىٰ يَومِ الدِّينِ؛ وَكُلُّهَا صَحِيحَةٌ، فَإِنَّ القُرآنَ يَأمُرُ بِدِينِ الإِسلَامِ، وَذَلِكَ عَهدُهُ وَأَمرُهُ وَطَاعَتُهُ، وَالاعتِصَامُ بِهِ جَمِيعًا إِنَّمَا يَكُونُ فِي الجَمَاعَةِ، وَدِينُ الإِسلَامِ حَقِيقَتُهُ الإِخلَاصُ للهِ ﷻ».

فَالمُتَمَسِّكُ بِالسُّنَّةِ -كَمَا قُلتُ- بِإِخلَاصٍ وَصِدقٍ؛ مُعتَصِمٌ بِحَبلِ اللهِ -جلَّ وعلَا- مُتَمَسِّكٌ بِهِ، وَمِن ذَلِكَ: الاجتِمَاعُ عَلَىٰ الحَقِّ وَبِالحَقِّ.

وَمِن عَلَامَاتِ أَهلِ الأَهوَاءِ المَنصُوصِ عَلَيهَا فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ: الفُرقَةُ، وَمُفَارَقَةُ الحَقِّ وَأَهلِهِ، كَمَا مَرَّ مَعَنَا فِي آيَاتٍ سَبَقَت آنِفًا.

وَالنَّبِيُّ ﷺ قَد بَيَّنَ كَمَا فِي حَدِيثِ العِربَاضِ رضي الله عنه -الذي مرَّ معنا، وفيه قوله-: «**فَإِنَّهُ مَن يَعِش مِنكُم فَسَيَرَىٰ اختِلَافًا كَثِيرًا**».

كيفَ النَّجَاةُ؟ الجوابُ: قوله ﷺ: «**فَعَلَيكُم بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهدِيِّينَ...**» الحَدِيثَ.

إِذَن؛ الاعتِصَامِ بِالسُّنَّةِ نَجَاةٌ، وَخَلَاصٌ مِنَ الفُرقَةِ المذمُومةِ: «**فَسَيَرَىٰ اختِلَافًا كَثِيرًا**»، جَاءَت الجملةُ فِي سِيَاقِ الذَّمِّ، وَأَمَّا المَدحُ لِمَنِ اعتَصَمَ بِالسُّنَّةِ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ حَدِيثَ الافتِرَاقِ المَشهُورَ لَا يَخفَىٰ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنكُم، وفيه قوله ﷺ: «**كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً**».

وَلِذَا عَدَّ أَهلُ العِلمِ مِن عَلَامَاتِ أَهلِ البِدَعِ: الفُرقَةَ.

وَمِن هَؤُلَاءِ: الإِمَامُ ابنُ بَطَّة رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الإِبَانَة الكُبرَىٰ»[١].

وَقَالَ الإِمَامُ ابنُ حبَّان في «صَحيحِهِ»[٢] بعد أن أسندَ حديثَ العِرباض رضي الله عنه: «في قوله ﷺ «فعليكم بسنَّتي» عند ذكره الاختلاف الذي يكون في أُمَّته بيانٌ واضحٌ أنَّ مَن واظبَ علىٰ السُّنَنِ وَقَالَ بِهَا، وَلَم يُعَرِّجْ عَلَىٰ غَيرِهَا مِنَ الآرَاءِ؛ مِنَ الفِرقَةِ النَّاجِيةِ في القِيَامَةِ، جَعَلَنَا اللهُ مِنهُم بِمَنِّهِ».

وقالَ الإمامُ البَغَوِيُّ فِي «شَرحِ السُّنَّة»[٣] عِندَ حَدِيثِ العِربَاضِ رضي الله عنه: «فِي قَولِهِ ﷺ: «فَإِنَّهُ مَن يَعِش...» الحَدِيثَ -قَالَ- إِشَارَةٌ إِلَىٰ ظُهُورِ البِدَعِ وَالأَهوَاءِ، وَاللهُ أَعلَم».

ويَقُولُ رَحِمَهُ اللَّهُ أيضًا: «فَأَمَرَ ﷺ بِلُزُومِ سُنَّتِهِ، وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ، وَالتَّمَسُّكِ بِهَا بِأَبلَغِ وُجُوهِ الجِدِّ، وَمُجَانَبَةِ مَا أُحدِثَ عَلَىٰ خِلَافِهَا».

قَالَ العَلَّامَةُ الشَّاطِبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَصلٌ: وَلِهَؤُلَاءِ الفِرَقِ خَوَاصُّ وَعَلَامَاتٌ فِي الجُملَةِ وَعَلَامَاتٌ فِي التَّفصِيلِ.

فَأَمَّا عَلَامَاتُ الجُملَةِ فَثَلَاثٌ:

إِحدَاهَا: الفِرقَةُ، الَّتِي نَبَّهَ اللهُ عَلَيهَا بِقَولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ﴾ [الأنعام:١٥٩]».

---

(١) (١/ ٣٧٦ و٣٨٦ و٣٨٨-٣٨٩).

(٢) (١/ ١٨٠- الإحسان).

(٣) (١/ ٢٠٦).

وَذَكَرَ جُملَةً مِنَ الآيَاتِ السَّابِقَةِ ثُمَّ قَالَ: «وَغَيرِ ذَلِكَ مِنَ الأَدِلَّةِ، قَالَ بَعضُ المُفَسِّرِينَ: صَارُوا فِرَقًا لِاتِّبَاعِ أَهوَائِهِم، وَبِمُفَارَقَةِ الدِّينِ تَشَتَّتَت أَهوَاؤُهُم فَافتَرَقُوا، وَهُوَ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا﴾، ثُمَّ بَرَّأَهُ اللهُ تَعَالَىٰ مِنهُم بِقَولِهِ: ﴿لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ﴾، وَهُم أَصحَابُ البِدَعِ وَأَصحَابُ الضَّلَالَاتِ وَالكَلَامِ فِيمَا لَم يَأذَن بِهِ اللهُ وَلَا رَسُولُهُ ﷺ»[1].

إِذَن؛ أَنتَ تَرَىٰ أَنَّ كَلَامَ الإِمَامِ الشَّاطِبِي يُبَيِّنُ العَلَامَاتِ الَّتِي يُعرَفُ بِهَا أَهلُ البِدَعِ فِي الجُملَةِ، وَعَدَّ أَوَّلَها: الفُرقَةَ.

وَقَالَ الإِمَامُ شَيخُ الإِسلَامِ رَحِمَهُ اللهُ: «وَلِهَذَا وُصِفَت الفِرقَةُ النَّاجِيَةُ بِأَنَّها أَهلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، وَهُم الجُمهُورُ الأَكبَرُ وَالسَّوادُ الأَعظَمُ، وَأَمَّا الفِرَقُ البَاقِيَةُ فَإِنَّهُم أَهلُ الشُّذُوذِ وَالتَّفَرُّقِ وَالبِدَعِ وَالأَهوَاءِ، وَلَا تَبلُغ الفِرقَةُ مِن هَؤلاءِ قَرِيبًا مِن مَبلَغِ الفِرقَةِ النَّاجِيَةِ فَضلًا عَن أَن تَكُونَ بِقَدرِهَا، بَل قَد تَكُونُ الفِرقَةُ مِنهَا فِي غَايَةِ القِلَّةِ، وَشِعَارُ هَذهِ الفِرَقِ مُفَارَقَةُ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالإِجمَاعِ»[2].

وقال أيضًا: «وَتَعلَمُونَ أَنَّ مِنَ القَوَاعِدِ العَظِيمَةِ الَّتِي هِيَ مِن جِمَاعِ الدِّينِ: تَألِيفُ القُلُوبِ، وَاجتِمَاعُ الكَلِمَةِ، وَصَلَاحُ ذَاتِ البَينِ.

فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾ [الأنفال:١].

---

(١) «الموافقات» (٥/ ١٦٠- ط ابن الجوزي)، وينظر كتابه الآخر: «الاعتصام» (٣/ ١٢٨- ١٢٩- ط ابن الجوزي).

(٢) «مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام» (٣/ ٣٤٥-٣٤٦).

وَيَقُولُ: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [آل عمران:١٠٣].

وَيَقُولُ: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران:١٠٥].

وَأَمثَالُ ذَلِكَ مِنَ النُّصُوصِ الَّتِي تَأمُرُ بِالجَمَاعَةِ وَالائتِلَافِ وَتَنهَىٰ عَنِ الفُرقَةِ وَالاختِلَافِ، وَأَهلُ هَذَا الأَصلِ هُم أَهلُ الجَمَاعَةِ، كَمَا أَنَّ الخَارِجِينَ عَنهُ هُم أَهلُ الفُرقَةِ»[1].

إِذَن مَن تَمَسَّكَ بِالسُّنَّةِ عُصِمَ، وَأَمِنَ مِنَ الزَّيغِ، وَالضَّلَالِ، وَالوُقُوعِ فِي الفُرقَةِ المَذمُومَةِ وَالاختِلَافِ المَذمُومِ.

(١) «مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية» (٢٨/ ٥١).

الثَّمَرَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ التَّمَسُّكَ بِالسُّنَّةِ فِيهِ فِكَاكٌ مِن سُبُلِ الشَّيطَانِ

قَالَ الإِمَامُ مُحَمَّدُ بنُ نَصرٍ المَروَزِيُّ فِي كِتَابِ «السُّنَّة»[1]: «قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]، فَأَخبَرَنَا اللهُ أَنَّ طَرِيقَهُ وَاحِدٌ مُستَقِيمٌ، وَأَنَّ السُّبُلَ كَثِيرَةٌ تَصُدُّ مَنِ اتَّبَعَهَا عَن طَرِيقِهِ المُستَقِيمِ، ثُمَّ بَيَّنَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ بِسُنَّتِهِ...

ثُمَّ أَسنَدَ حَدِيثَ عَبدِ اللهِ بنِ مَسعُودٍ رضي الله عنه وَهُوَ عِندَ الإِمَامِ أَحمَدَ[2] وغيرِهِ: خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: هَذَا سَبِيلُ اللهِ، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَن شِمَالِهِ وَعَن يَمِينِهِ، ثُمَّ قَالَ: هَذِهِ سُبُلٌ، عَلَىٰ كُلِّ سَبِيلٍ مِنهَا شَيطَانٌ يَدعُو إِلَيهِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾...

ثم ذكر بعض طرق الحديث ثم قال: فحذَّرنا الله ثم رسولُهُ ﷺ المحدثات

---

(١) (ص٩).

(٢) (٧/ رقم ٤١٤٢)، وهو حديثٌ صحيحٌ، لَهُ طُرق بيَّنتُها مفصَّلةً في تحقيقي وتخريجي لكتاب «أصول السنة» لابن أبي زمنين (رقم ١) فلينظر فيه بحلَّته الجديدة بحمد الله ومنَّته.

والأهواء الصَّادَّة عن اتِّباعِ أمر الله وسنَّة نبيِّه ﷺ».

فَهَذَا الحَدِيثُ ظَاهِرٌ فِي أَنَّ مَن تَمَسَّكَ بِالسُّنَّةِ أَمِنَ مِنَ الوُقُوعِ فِي شِرَاكِ سُبُلِ الشَّيطَانِ وَطُرقِ غوايَتِهِ، وَعُصِمَ مِن ذَلِكَ، وَمَن حَادَ عَنِ السُّنَّةِ؛ وَقَعَ فِي حَبَائِلِ الشَّيطَانِ، وَوَقَعَ فِي سُبُلِهِ، وَالعِيَاذُ بِاللهِ، وَخُذِلَ وَنُعُوذُ بِاللهِ مِنَ الخِذلَانِ.

وفِي هَؤلاءِ يَقُولُ الإمامُ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتَابِ «الفَوائِدِ»[1]: «لَمَّا أَعرَضَ النَّاسُ عَن تَحكِيمِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالمُحَاكَمَةِ إِلَيهِمَا، وَاعتَقَدُوا عَدَمَ الاكتِفَاءِ بِهِمَا، وَعَدَلُوا إِلَىٰ الآرَاءِ وَالقِيَاسِ، وَالاستِحسَانِ، وَأَقوَالِ الشُّيُوخِ؛ عَرَضَ لَهُم مِن ذَلِكَ فَسَادٌ فِي فِطَرِهِم، وَظُلمَةٌ فِي قُلُوبِهِم، وَكَدَرٌ فِي أَفهَامِهِم، وَمَحقٌ فِي عُقُولِهِم، وَعَمَّتهُم هَذِهِ الأُمُورُ، وَغَلَبَت عَلَيهِم حَتَّىٰ رَبَا عَلَيهَا الصَّغِيرُ، وَهَرِمَ عَلَيهَا الكَبِيرُ، فَلَم يَرَوهَا مُنكَرًا، فَجَاءَتهُم دَولَةٌ أُخرَىٰ، قَامَت فِيهَا البِدَعُ مَقَامَ السُّنَنِ، وَالنَّفسُ مَقَامَ العَقلِ، وَالهَوَىٰ مَقَامَ الرُّشدِ، وَالضَّلَالُ مَقَامَ الهُدَىٰ، وَالمُنكَرُ مَقَامَ المَعرُوفِ، وَالجَهلُ مَقَامَ العِلمِ، وَالرِّيَاء مَقَامَ الإِخلَاصِ، وَالبَاطِلُ مَقَامَ الحَقِّ، وَالكَذِبُ مَقَامَ الصِّدقِ، وَالمُدَاهَنَةُ مَقَامَ المُنَاصَحَةِ، وَالظُّلمُ مَقَامَ العَدلِ، فَصَارَتِ الدَّولَةُ وَالغَلَبَةُ لِهَذِهِ الأُمُورِ وَلَابُدَّ، وَأَهلُهَا هُمُ المُشَارُ إِلَيهِم، وَكَانَت قَبلُ؛ فَإِذَا رَأَيتَ دَولَةَ هَذِهِ الأُمُورُ قَد أَقبَلَت فِيهَا، وَرَايَاتُهَا قَد نُصِبَت، وَجُيُوشُهَا قَد رُكِبَت؛ فَبَطنُ الأَرضِ وَاللهِ خَيرٌ مِن ظَاهِرِهَا، وَقُلَلُ الجِبَالِ خَيرٌ مِنَ السُّهُولِ، وَمُخَالَطَةُ الوُحُوشِ أَسلَمُ مِن مُخَالَطَةِ النَّاسِ».

---

(١) (ص ٤٧).

ثُمَّ نَقَلَ عَنِ الإِمَامِ شَيخِ الإِسلَامِ[1]: «وَقَالَ لِي شَيخُنَا مَرَّةً فِي وَصفِ هَؤُلَاءِ: إِنَّهُم طَافُوا عَلَىٰ أَربَابِ المَذَاهِبِ فَفَازُوا بِأَخَسِّ المَطَالِبِ، وَيَكفِيكَ دَلِيلًا عَلَىٰ أَنَّ هَذَا الَّذِي عِندَهُم لَيسَ مِن عِندِ اللهِ مَا تَرَىٰ فِيهِ مِنَ النَّقَائِضِ وَالاختِلَافِ، وَمُصَادَمَةِ بَعضِهِ بَعضًا، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ مَا كَانَ مِن عِندِهِ سُبحَانَهُ لَا يَختَلِفُ، وَأَنَّ مَا اختَلَفَ وَتَنَاقَضَ فَلَيسَ مِن عِندِهِ، وَكَيفَ تَكُونُ الآرَاءُ وَالخَيَالَاتُ وَسَوَانِحُ الأَفكَارِ دِينًا يُدَانُ وَيُحكَمُ بِهِ عَلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ؟! سُبحَانَكَ هَذَا بُهتَانٌ عَظِيمٌ!!

وَقَد كَانَ عِلمُ الصَّحَابَةِ الَّذِي يَتَذَاكَرُونَ فِيهِ غَيرَ عُلُومِ هَؤُلَاءِ المُختَلِفِينَ الخَرَّاصِينَ، كَمَا حَكَىٰ الحَاكِمُ فِي تَرجَمَةِ أَبِي عَبدِ اللهِ البُخَارِيِّ قَالَ: كَانَ أَصحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذَا اجتَمَعُوا يَتَذَاكَرُونَ كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيسَ بَينَهُم رَأيٌ وَلَا قِيَاسٌ». يُرِيدُ: القِيَاسَ المُتَكَلَّفَ.

فَالمُعتَصِمُ آمِنٌ -بِإِذنِ اللهِ تَعَالَىٰ- مِن سُبُلِ الشَّيطَانِ.

---

(١) «الفوائد» (ص ١٠٤).

الثمرةُ الخَامِسَةُ:
أنَّ الْمُتَمَسِّكَ بِالسُّنَّةِ لَهُ أَجرُ مَن تَبِعَهُ

أَخرَجَ الإِمَامُ مُسلِمٌ فِي «الصَّحِيحِ»(١) مِن حَدِيثِ جَرِيرِ بنِ عبد اللهِ رضي الله عنه، قَولَهُ ﷺ: «مَن سَنَّ فِي الإِسلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجرُهَا وَأَجرُ مَن عَمِلَ بِهَا بَعدَهُ مِن غَيرِ أَن يَنقُصَ مِن أُجُورِهِم شَيءٌ».

هَذَا حَدِيثٌ ظَاهِرُ الدَّلَالَةِ عَلَىٰ عَظِيمِ أَجرِ مَن أَحيَا سُنَّةَ النَّبِيِّ ﷺ، وَنَشرَهَا فِي النَّاسِ؛ فَاقتَدَىٰ بِهِ غَيرُهُ، فَلَهُ أَجرُ مَن عَمِلَ بِهَا دُونَ أَن يَنقُصَ مِن أَجرِ ذَلِكَ شَيئًا.

قال الحافظُ النَّووي في «شَرح مسلمٍ»(٢): «فيه الحثُّ عَلَىٰ الابتِدَاءِ بالخَيرَاتِ وَسَنِّ السُّنَنِ الحَسَنَاتِ وَالتَّحذِيرِ مِن اختِرَاعِ الأَبَاطِيلِ وَالمُستَقبَحَاتِ...».

وَأَخرَجَ مُسلِمٌ فِي «الصَّحِيحِ»(٣) أيضًا مِن حَدِيثِ أَبِي هُرَيرَةَ قَولَهُ ﷺ: «مَن دَعَا إِلَىٰ هُدًىٰ كَانَ لَهُ مِنَ الأَجرِ مِثلَ أُجُورِ مَن تَبِعَهُ لَا يَنقُصُ ذَلِكَ مِن

(١) (٢/ رقم ١٠١٧).

(٢) (٧/ ١٠٤).

(٣) (٤/ رقم ٢٦٧٤).

أُجُورِهِم شَيئًا، وَمَن دَعَا إِلَىٰ ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيهِ مِنَ الإِثمِ مِثلَ آثَامِ مَن تَبِعَهُ لَا يَنقُصُ ذَلِكَ مِن آثَامِهِم شَيئًا».

يَقُولُ العَلَّامَةُ السَّعدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عِندَ هَذَا الحَدِيثِ فِي «بَهجَة قُلُوبِ الأَبرَارِ»[1]: «الهُدَىٰ: هُوَ العِلمُ النَّافِعُ، وَالعَمَلُ الصَّالِحُ.

فَكُلُّ مَن عَلَّمَ عِلمًا أَو وَجَّهَ المُتَعَلِّمِينَ إِلَىٰ سُلُوكِ طَرِيقَةٍ يَحصُلُ لَهُم بِهَا عِلمٌ نَافِعٌ: فَهُوَ دَاعٍ إِلَىٰ الهُدَىٰ.

وَكُلُّ مَن دَعَا إِلَىٰ عَمَلٍ صَالِحٍ يَتَعَلَّقُ بِحَقِّ اللهِ، أَو بِحُقُوقِ الخَلقِ العَامَّةِ وَالخَاصَّةِ: فَهُوَ دَاعٍ إِلَىٰ الهُدَىٰ.

وَكُلُّ مَن أَبدَىٰ نَصِيحَةً دِينِيَّةً أَو دُنيَوِيَّةً يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَىٰ الدِّينِ: فَهُوَ دَاعٍ إِلَىٰ الهُدَىٰ.

وَكُلُّ مَنِ اهتَدَىٰ فِي عِلمِهِ أَو عَمَلِهِ، فَاقتَدَىٰ بِهِ غَيرُهُ: فَهُوَ دَاعٍ إِلَىٰ الهُدَىٰ. وَعَكسُ ذَلِكَ كُلُّهُ دَاعٍ إِلَىٰ الضَّلَالَةِ».

---

(١) (ص٢١-٢٢).

الثَّمَرَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ الْمُتَمَسِّكَ بِالسُّنَّةِ مُحَصِّلٌ لِلسَّعَادَةِ فِي الدَّارَيْنِ

الَّذِي تَمَسَّكَ بِالسُّنَّةِ مُتَّبِعٌ لِلأَمرِ الإِلَهِيِّ، مُمتَثِلٌ لِأَمرِ اللهِ ﷻ ، مُعرِضٌ عَن مُجَانَبَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ .

قَالَ اللهُ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾[طه:١٢٤] .

وَالمُتَمسِّكُ مُعرِضٌ أَم مُتَّبِعٌ؟

المُتَمَسِّكُ مُتَّبِعٌ غَيرُ مُعرِضٍ؛ فهو ذاكرٌ لربِّه مُتَّبِعٌ لنبيِّه ﷺ، لذا فَهُو مَوعُودٌ بالنَّعيمِ المُقِيمِ والأجرِ العَمِيمِ، قال تَعالَىٰ: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[النساء:١٣] .

يَقُولُ الإِمَامُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الرِّسالة التَّبوكيَّة»[1] شارحًا قَولَ اللهِ تعالىٰ: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ

(١) (ص٧٥-٧٦).

ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء:٥٩]: «هَذَا دَلِيلٌ قَاطِعٌ عَلَىٰ أَنَّهُ يَجِبُ رَدُّ مَوَارِدِ النِّزَاعِ فِي كُلِّ مَا تَنَازَعَ فِيهِ النَّاسُ مِنَ الدِّينِ كُلِّهِ إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ لَا إِلَىٰ أَحَدٍ غَيرِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ...».

إِلَىٰ أَن قَالَ: «قد اتَّفقَ السَّلفُ والخَلَفُ عَلَىٰ أنَّ الرَّدَّ إِلَىٰ اللهِ: هُو الرَّدُّ إِلَىٰ كِتَابِهِ، والرَّدُّ إِلَىٰ الرَّسُولِ ﷺ: هُو الرَّدُّ إليهِ فِي حَيَاتِهِ، وَالرَّدُّ إِلَىٰ سُنَّتِهِ بَعدَ وَفَاتِهِ.

ثُمَّ قَالَ تَعالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾: أي: هَذا الَّذي أَمَرتُكُم بِهِ مِن طَاعَتِي وَطَاعَةِ رَسُولِي وَأَولِيَاءِ الأَمرِ، وَرَدِّ مَا تَنَازَعتُم فيهِ إِلَيَّ وَإِلَىٰ رَسُولِي خَيرٌ لَكُم فِي مَعَاشِكُم وَمَعَادِكُم، وهُو سَعادتُكُم فِي الدَّارينِ؛ فَهُو خَيرٌ لَكُم وَأحسَنُ عَاقِبَةً.

فَدَلَّ هَذَا عَلَىٰ أَنَّ طَاعَةَ اللهِ وَطَاعَةَ الرَّسُولِ ﷺ وَتَحكِيمَ اللهِ وَرَسُولِهِ هُوَ سَبَبُ السَّعَادَةُ عَاجِلًا وَآجِلًا، وَمَن تَدَبَّرَ العَالَمَ وَالشُّرُورَ الوَاقِعَةَ فِيهِ عَلِمَ أَنَّ كُلَّ شَرٍّ فِي العَالَمِ سَبَبُهُ مُخَالَفَةُ الرَّسُولِ ﷺ، وَالخُرُوجُ عَن طَاعَتِهِ، وَكُلُّ خَيرٍ فِي العَالَمِ سَبَبُهُ طَاعَةُ النَّبِيِّ ﷺ وَكَذَلِكَ شُرُورُ الآخِرَةِ وَآلَامُهَا وَعَذَابُهَا، إِنَّمَا هُوَ مِن مُوجِبَاتِ مُخَالَفَةِ النَّبِيِّ ﷺ.

فَعَادَ شَرُّ الدُّنيا وَالآخرة إِلَىٰ مُخَالَفَةِ الرَّسُولِ ﷺ وما يَترَتَّبُ عَليهِ، فَلَو أَنَّ النَّاسَ أَطَاعُوا الرَّسُولَ ﷺ حَقَّ طاعَتِهِ لَم يَكُن فِي الأَرضِ شَرٌّ قَطُّ، وَهَذَا كَمَا أَنَّهُ مَعلُومٌ فِي الشُّرُورِ العَامَّةِ وَالمَصَائِب الوَاقِعَةِ فِي الأَرضِ، فَكَذَلِكَ هُو فِي

الشَّرِّ وَالأَلَمِ وَالغَمِّ الَّذي يُصِيبُ العَبدَ فِي نَفسِهِ، فَإِنَّمَا هُو بِسَبَبِ مُخَالَفَةِ الرَّسُولِ ﷺ، ولأَنَّ طَاعَتَهُ هِي الحِصنُ الَّذي مَن دَخَلَهُ كَانَ مِنَ الآمِنِينَ، وَالكَهفُ الَّذي مَن لَجَأَ إِليهِ كَانَ مِنَ النَّاجِين، فَعُلِمَ أَنَّ شُرُورَ الدُّنيَا وَالآخِرَةِ إِنَّمَا سَبَبُهُ الجَهلُ بِمَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ وَالخُرُوجُ عَنهُ، وَهَذَا بُرهَانٌ قَاطِعٌ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا نَجَاةَ لِلعَبدِ وَلَا سَعَادَةَ إِلَّا بِالاجتِهَادِ فِي مَعرِفَةِ مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ عِلمًا وَالقِيَامِ بِهِ عَمَلًا».

الثَّمرَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ الْمُتَمسِّكَ بِالسُّنَّةِ يَصِلُ بِهِ تَمَسُّكُهُ بِصِدقٍ وَإِخلاصٍ إِلَى دَرَجَةِ مَحبَّةِ اللهِ لَهُ

أَخرَجَ البُخَارِيُّ فِي «الصَّحِيح»[1] أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَالَ: مَن عَادَىٰ لِي وَلِيًّا فَقَد آذَنتُهُ بِالحَربِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبدِي بِشَيءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افتَرَضتُهُ عَلَيهِ، وَمَا يَزَالُ عَبدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحبَبتُهُ كُنتُ سَمعَهُ الَّذِي يَسمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبطِشُ بِهَا، وَرِجلَهُ الَّتِي يَمشِي بِهَا، وَإِن سَأَلَنِي لَأُعطِيَنَّهُ، وَلَئِن استَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ».

فَهَذَا حَدِيثٌ عَظِيمٌ بَيِّنٌ فِي شَرَفِ وَعِظَمِ الأَولِيَاءِ وَكَرَامَاتِهِم، قَالَ بَعضُ أَهلِ العِلمِ: «إِنَّهُ أَشرَفُ حَدِيثٍ رُوِيَ فِي ذِكرِ الأَولِيَاء»[2].

وذَكَرَ الحَافِظُ ابنُ رَجَبٍ فِي «جَامِعِ العُلُومِ وَالحِكَمِ» عِندَ شَرحِهِ لِهَذَا الحَدِيثِ أَنَّ أَولِيَاء اللهِ المُقَرَّبِينَ عَلَىٰ قِسمَينِ:

أَحَدهُمَا: مَن تَقَرَّبَ إِلَيهِ بِأَدَاءِ الفَرَائِضِ، وَيَشمَلُ ذَلِكَ فِعلَ الوَاجِبَاتِ،

---

(١) (١١/ ٣٤٠- فتح).

(٢) ينظر: «جامع العلوم والحكم» للحافظ ابن رجب (٢/ ٣٣٤)، و«مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام» (١٨/ ١٢٩).

وَترك المُحَرَّمَاتِ..

وَالثَّانِي: مَن تَقَرَّبَ إليهِ بَعدَ الفَرَائِضِ بِالنَّوَافِلِ.

ثُمَّ قَالَ: «فَظَهرَ بِذَلِكَ أنَّه لَا طَرِيقَ يُوصِلُ إِلَىٰ التَّقرُّب إِلَىٰ اللهِ تَعالَىٰ وَوِلَايَتِهِ ومَحبَّتِهِ سِوَىٰ طَاعته الَّتي شَرعهَا عَلىٰ لِسانِ رَسُولهِ ﷺ، فَمَن ادَّعىٰ وِلَايَة اللهِ، والتَّقرُّب إليهِ ومَحبَّته بِغَير هَذه الطَّرِيق، تَبَيَّنَ أنَّه كَاذِبٌ فِي دَعواهُ».

جَاءَ فِي «الزُّهدِ»[1] لِلإِمَامِ ابنِ أَبِي حَاتِمٍ أَنَّ الإِمَامَ الحَسَنَ البَصرِيَّ قَالَ: «كَانُوا يَقُولُونَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا لَنُحِبُّ اللهَ؛ فَأَرَادَ اللهُ أَن يَجعَلَ لِحُبِّهِم عَلَامَةً فَأَنزَلَ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]».

وقَالَ الإِمَامُ ابنُ القَيِّمِ فِي «المَدَارِجِ»[2]: «لَمَّا كَثُرَ المُدَّعُونَ لِلمَحَبَّةِ طُولِبُوا بِالبَيِّنَةِ عَلَىٰ صِحَّةِ الدَّعوَىٰ، فَلَو يُعطَىٰ النَّاسُ بِدَعوَاهُم لَادَّعَىٰ الخَلِيُّ حُرقَةَ الشَّجِيِّ، فَتَنَوَّعَ المُدَّعُونَ فِي الشُّهُودِ؛ فَقِيلَ: لَا تُقبَلُ هَذِهِ الدَّعوَىٰ إِلَّا بِبَيِّنَةٍ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾، فَتَأَخَّرَ الخَلقُ كُلُّهُم، وَثَبَتَ أَتبَاعُ الحَبِيبِ -عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- فِي أَفعَالِهِ وَأَقوَالِهِ وَأَخلَاقِهِ».

وقَالَ فِي «الفَوائِدِ»[3]: «أَقرَبُ الوَسَائِلِ إِلَىٰ اللهِ مُلَازَمَة السُّنَّةِ، وَالوُقُوف

(١) (ص ٥١).

(٢) (٣/ ٨).

(٣) (ص ١٠٨).

مَعَهَا فِي الظَّاهِرِ وَالبَاطِنِ، وَدَوام الافتِقَارِ إِلَىٰ اللهِ، وَ إِرَادَة وَجهِهِ وَحدَهُ بِالأَقوَالِ وَالأَفعَالِ، وَمَا وَصَلَ أَحَدٌ إِلَىٰ اللهِ إِلَّا مِن هَذِهِ الثَّلاثَةِ، وَمَا انقَطَعَ عَنهُ أَحَدٌ إِلَّا بِانقِطَاعِهِ عَنهَا أَو عَن أَحَدِهَا».

قُلتُ: هَذِهِ بَعضُ الثَّمَرَاتِ، وَالثَّمَرَاتُ كَثِيرَةٌ، ومَن تمسَّك بالسُّنَّةِ بصدقٍ وجدَ الخيرَ في الآجلة قبل العاجلةِ، وغَمَرَتهُ المَنفَعَةُ الدِّينِيَّةُ وَالدُّنيَوِيَّةُ.

يَقُولُ الإِمَامُ ابنُ حِبَّانَ فِي «مُقَدِّمَة الصَّحِيح»[1]: «إِنَّ فِي لُزُومِ سُنَّتِهِ تَمَامَ السَّلَامَةِ، وَجِمَاعَ الكَرَامَةِ، لَا تُطفَأُ سُرُجُهَا، وَلَا تُدحَضُ حُجَجُهَا، مَن لَزِمَهَا عُصِمَ، وَمَن خَالَفَهَا نَدِمَ، إِذ هِيَ الحِصنُ الحَصِينُ، وَالرُّكنُ الرَّكِينُ الَّذِي بَانَ فَضلُهُ وَمَتُنَ حَبلُهُ، مَن تَمَسَّكَ بِهِ سَادَ، وَمَن رَامَ خِلَافَهُ بَادَ، فَالمُتَعَلِّقُونَ بِهِ أَهلُ السَّعَادَةِ فِي الآجِلِ، وَالمَغبُوطُونَ بَينَ الأَنَامِ فِي العَاجِلِ». اهـ

وقَالَ الإِمَامُ ابنُ قُدَامَة رَحِمَهُ اللهُ فِي «ذَمِّ المُوَسوِسِينَ»[2] -وَمَا أَكثَر المُوَسوِسِينَ فِي السُّنَّةِ وَعَلَىٰ أَهلِهَا-: «وَفِي اتِّبَاعِ السُّنَّةِ بَرَكَةُ مُوَافَقَةِ الشَّرعِ، وَرِضَا الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وَرَفعُ الدَّرَجَاتِ، وَرَاحَةُ القَلبِ، وَدَعَةُ البَدَنِ، وَتَرغِيمُ الشَّيطَانِ، وَسُلُوكُ الصِّرَاطِ المُستَقِيمِ».

---

(١) (١/ ١٠٢).

(٢) (ص ٤١).

سادسًا: ذكرُ صورٍ من تَعظيمِ السَّلَفِ للسُّنَّةِ وتَمسُّكِهم بِهَا

مَا أحوَجَنَا- أيُّها الإخوَةُ- إلَىٰ التَّذكيرِ بِهَذِهِ الصُّورِ، لِنتَعَرَّفَ عَلَيهَا عَن قُربٍ، ولِيَظهَرَ لنَا مَا كانَ عَليهِ سَلَفُنا الصَّالِح مِن تَعظيمٍ وَحِرصٍ عَلَىٰ التَّمسُّك بالسُّنَّةِ وَنَبذِ مَا خَالَفَهَا.

قَالَ الإمَامُ ابنُ القَيِّم فِي «الرِّسَالَةِ التَّبُوكِيَّة»[1]: «وَمَن تَطَلَّعَت هِمَّتُهُ إلَىٰ مَعرِفَةِ مَا كَانَ عَليهِ الصَّحَابَة رضي الله عنهم ، وَأرادَ اتِّبَاعَهُم فَهذِهِ طَرِيقَتُهُم حَقًّا.

فإن شِئتَ وَصلَ القومِ فَاسلُك سَبِيلَهُمُ ... فَقَد وَضَحت لِلسَّالِكينَ عِيَانَا»

فَمِن تِلكَ الصُّورِ العَظِيمَةِ:

١- مَا جَاءَ عَن أبِي بَكرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه لَمَّا تُوفِّي رسُولُ اللهِ ﷺ، وارتَدَّ مَن ارتَدَّ مِن العَربِ، ومَنعَ بعضُ النَّاسِ الزكَاةَ، قَالَ رضي الله عنه: «واللهِ لَو مَنعُونِي عقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إلَىٰ رسُولِ الله ﷺ لقَاتَلتُهُم عَلَىٰ مَنعِهِ» أخرَجهُ الشَّيخان فِي الصَّحيحِين[2].

---

(١) (ص ٧٧).

(٢) البخاري (٣/ رقم ١٣٩٩ و١٤٠٠-فتح)، ومسلم [١/ رقم ٣٢ (٢٠)].

٢- مَا جاءَ في الصَّحيحين[١] أنَّ عُمرَ بن الخَطَّاب ﷺ لَمَّا قَبَّلَ الحَجرَ الأَسودَ قَالَ: «أمَا وَاللهِ إنِّي لأَعلَمُ أنَّكَ حَجرٌ لَا تَضرُّ وَلَا تَنفَعُ، وَلَولَا أنِّي رأيتُ رسُولَ اللهِ ﷺ قَبَّلَكَ مَا قَبَّلتُكَ».

٣- مَا جاءَ عَن عَليِّ بن أبي طالبٍ ﷺ لَمَّا بَلغَهُ عَن عُثمانَ بنِ عفَّانَ ﷺ أنَّهُ كانَ يَنهَىٰ عَن مُتعةِ الحَجِّ، أَهَلَّ عليٌّ ﷺ بالعُمرةِ والحَجِّ جَميعًا، وقَالَ: «مَا كُنتُ لأدَعَ سُنَّةَ النَّبيِّ ﷺ لقَولِ أَحَدٍ» مُتفقٌ عَليهِ[٢]، واللَّفظُ للبُخاريِّ.

٤- عَن عَبدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما أنَّهُ قَالَ: «عَليكَ بتَقوَىٰ اللهِ والاستقَامَةِ، واتَّبع ولَا تَبتَدِع» أخرَجهُ الدَّارميُّ فِي «السُّننِ»[٣].

وأخرَجَ أيضًا[٤] عَنهُ أنهُ قَالَ: «مَن أَحدَثَ رأيًا لَيسَ فِي كتَابِ اللهِ، ولَم تَمضِ بهِ سُنَّةُ رسُولِ اللهِ ﷺ، لَم يَدرِ مَا هُو عَليهِ إذَا لقِي اللهَ ﷻ».

٥- ما جَاءَ عنِ عَبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ ﷺ أنهُ قَالَ -كمَا رَواهُ الدَّارِميُّ فِي «سُننِهِ»[٥]-: «اتَّبعُوا ولا تَبتَدِعُوا؛ فَقد كُفِيتُم».

---

(١) البخاري (٣/ رقم ١٥٩٧- فتح)، ومسلم (٢/ رقم ١٢٧٠).

(٢) البخاري (٣/ رقم ١٥٦٤- فتح)، ومسلم (٢/ رقم ١٢٢٣).

(٣) (١/ ٥٣)، وابن بطة في «الإبانة الكبرىٰ» (١/ رقم ٢٠٠).

(٤) (١/ ٥٧)، وينظر: «الاعتصام» للشاطبي (١/ ٨١).

(٥) (١/ ٦٩)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (١/ رقم ١٠٤)، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٨١): «رجاله رجال الصحيح».

وجاءَ عَنهُ أنهُ قَالَ: «اقتصَادٌ فِي سُنةٍ خَيرٌ مِن اجتِهادٍ فِي بِدعَةٍ» خَرَّجهُ الحَاكمُ وغَيرُهُ[١].

٦- ما جاءَ عَن عَبدِ اللهِ بنِ عُمرَ ﷺ -كمَا أخرَجَ ذَلكَ عبدُ الرزَّاقِ فِي «مُصنَّفِهِ»[٢]-: أنَّ رجُلًا قَالَ لابنِ عُمرَ: «إنِّي كُنتُ أنَا وصَاحبٍ لِي فِي سَفَرٍ، فَأَتمَمتُ أنَا وقَصَّرَ هُو -يعنِي: مَا رأيُكَ فِي هذَا الحُكمِ-، فقَالَ ﷺ: بَل أَتمَّ هُو وقَصَّرتَ أنتَ».

لأنَّ السُّنةَ فِي السفَرِ مَاذَا؟ القَصرُ.

وأخرَجَ ابنُ أبِي شَيبةَ فِي «مُصنَّفِه»[٣] عَن عَبدِ اللهِ بنِ عُمرَ ﷺ: «أنَّ رجُلًا قَالَ لهُ: نَجدُ صلاةَ الخَوفِ وَصَلاةَ الحَضرِ فِي القُرآنِ، وَلَا نَجدُ صَلاةَ السَّفَرِ؟ فقَالَ ابنُ عُمرَ -انظُر إلَىٰ هذَا الجَوابِ المُؤدَّبِ المؤدِّبِ-: بَعَثَ اللهُ نَبيَّهُ ونَحنُ أَجهَلُ نَاسٍ، فنَصنَعُ كمَا صَنعَ رسُولُ الله ﷺ»؛ أي: نَقِفُ حُيثُ عُلِّمنَا وهُدِينَا.

٧- ما جاء عن عُمر بنِ عَبدِ العَزيزِ الإمَام الرَّاشِد، كَتَبَ إلَيه أَحَدُ عُمَّالِهِ

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ١٠٣) وصححه، وابن بطة في «الإبانة الكبرىٰ» (١/ رقم ٢٠١)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (١/ رقم ١٤)، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٨٨): «رجاله ثقاتٌ».

(٢) (٢/ ٥٦١).

(٣) (٢/ ٥١٧)، ونحوه عند النسائي في «المجتبىٰ» (١/ ٢٤٥).

يسألُهُ عَن الأهوَاءِ، فَأَجَابَهُ بقَولِهِ مَكتوبًا: «أمَّا بعدُ: فَإنِّي أُوصِيكَ بتَقوَىٰ اللهِ، وَالاقتِصَاد فِي أَمرِهِ، وَاتِّبَاعِ سُنَّتِهِ وسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، وَتَركِ مَا أَحدَثَ المُحدِثُونَ بَعدَهُ مِمَّا جَرت بِهِ سُنَّتُهُ، وكُفُوا مُؤنَتَهُ، فعَليكَ بِلُزُومِ السُّنَّةِ؛ فَإنَّها لكَ بإذنِ الله عِصمَةٌ...». أَخرَجهُ الآجُرِيُّ فِي «الشَّرِيعةِ»[1].

٨- مَا جاءَ عَن الإمَامِ المُبَجَّلِ مُحمَّدِ بنِ مُسلمِ بنِ شِهابٍ الزُّهرِيِّ التَّابعِيِّ الجَلِيلِ، قَالَ: «كَانَ مَن مَضَىٰ مِن عُلمَائِنَا يَقُولُونَ: الاعتصَامُ بالسُّنَّةِ نَجَاةٌ، والعِلمُ يُقبَضُ قَبضًا سَريعًا، فبِعَيشِ العِلمِ ثَبَاتُ الدِّينِ وَالدُّنيَا، وفِي ذَهابِ العِلمِ ذَهَابُ ذَلكَ كُلِّهِ». خرَّجهُ الدَّارِمِيُّ فِي «سُننِهِ»[2].

٩- مَا أخرَجَهُ ابنُ أبِي شَيبةَ فِي «مُصنَّفِهِ»[3] بسَندِهِ عَنِ الأعمَشِ، أنَّ إبراهِيمُ النَّخَعِيُّ التَّابعِيُّ الجَلِيلُ، سُئلَ عَن إمامٍ كانَ إذا سلَّمَ بَعدَ الصَّلاةِ قَالَ: صلَّىٰ اللهُ علَىٰ مُحمَّدٍ، لَا إلَهَ إلَّا الله، أي يقُولُ هذَا الذِّكرَ بعد السَّلام-؟

فقَالَ: «مَا كَانَ مَن قَبلَهُم يصنَعُ هَكَذَا»؛ يَعنِي: هذَا أمرٌ مُحدَثٌ، وكانَ قَد سَاقَ قَبلَهُ أنَّ أبَا البُختُرِيِّ رَحِمَهُ اللهُ وصَفَ هذا الفعلَ -وكانَ قُد سُئِلَ عَن هَذَا فقَالَ-: «هَذِه بِدعَةٌ».

---

(١) (ص ٤٨)، وابن وضاح في «البدع والنهي عنها» (رقم ٧٤) بسندٍ صحيح، ونحوه عند أبي نعيم في «الحلية» (٥/ ٣٣٨)، وينظر: «الاعتصام» للشاطبي (١/ ٥٠).

(٢) (١/ ٤٥).

(٣) (١/ ٣٠٤).

١٠ ـ مَا جاءَ عندَ عَبدِ الرزَّاقِ فِي «مُصنَّفِهِ»(١) عَن الإمام سَعيدِ بنِ المُسيَّبِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ رجُلًا كَانَ يُكرِّرُ الرَّكُوعَ بَعدَ الفَجرِ، فنَهَاهُ وجَذَبَهُ أنِ اجلِس، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: «يَا أبَا مُحمَّدٍ، أيُعذِّبُنِي اللهُ عَلىٰ الصَّلاةِ؟ فقَالَ: لَا، ولَكن يُعَذِّبُكَ عَلىٰ خِلافِ السُّنَّةِ».

ولَكِن يُعذبُكَ عَلىٰ خِلافِ السُّنةِ، لَا يُعذِّبُ اللهُ -جلَّ وعزَّ- عَلىٰ الصَّلاةِ، يُعذِّبُ عَلَىٰ خِلَافِ السُّنَّةِ؛ لأنَّ الأعمَالَ مَشروطَةٌ بشَرطَينِ للقَبُولِ: الإخلَاصُ، والاتِّباعِ لِهَدي رسُولِ اللهﷺ.

(١) (٣/ ٥٢).

سابعًا: الخَاتِمَةُ

وَالخَاتِمَةُ خَتَمَ اللهُ لَنَا وَلَكُم بِخَيرٍ، وَأَحسَنَ لَنَا وَلَكُمُ العَاقِبَةَ، وَثَبَّتَنِي اللهُ وَإِيَّاكُم عَلَىٰ الإِسلَامِ وَالسُّنَّةِ حَتَّىٰ نَلقَاهُ.

تَرجُو النَّجَاةَ وَلَم تَسلُك مَسَالِكَهَا ... إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجرِي عَلَىٰ اليَبَسِ

لُزُومُ السُّنَّةِ نَجَاةٌ وَعِصمَةٌ وَأَمنٌ وَرَاحَةٌ وَطُمَأنِينَةٌ.

فَاستَمِع -أَسمَعَنِي اللهُ وَإِيَّاكَ- إِلَىٰ هَذَا الخَيرِ الَّذِي قَالَهُ الإِمَامُ الحَسَنُ البَصرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِيمَا ذَكَرَهُ السَّفَّارِينِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «شَرحِهِ عَلَىٰ ثُلَاثِيَّاتِ مُسنَدِ الإِمَامِ أَحمَدَ»[1] قَالَ: «يَا ابنَ آدَمَ، لَا تَغتَرَّ بِقَولِ مَن يَقُولُ: المَرءُ مَعَ مَن أَحَبَّ[2]، إِنَّ مَن أَحَبَّ قَومًا اتَّبَعَ آثَارَهُمُ، ولَن تَلحَقَ بِالأَبرَارِ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ آثَارَهُم، وَتَأخُذَ بِهَدِيِهِم، وَتَقتَدِيَ بِسُنَّتِهِم، وَتُصبِحَ وَتُمسِيَ وَأَنتَ عَلَىٰ مِنهَاجِهِم، حَرِيصًا عَلَىٰ أَن تَكُونَ مِنهُم، فَتَسلُكَ سَبِيلَهُم، وَتَأخُذَ طَرِيقَهُم، وَإِن كُنتَ مُقَصِّرًا فِي العَمَلِ فَإِنَّ مِلَاكَ الأَمرِ أَن تَكُونَ عَلَىٰ استِقَامَةٍ.

---

(١) (١/ ٦١٧).

(٢) هذا جزءٌ من حديثٍ متفقٍ عليه، لكن بعض الناس يحتجُّ به، وهو مخالفٌ لرسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله، بل واعتقاده -إن فتشت-، هذا هو مرادُ الإمام الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ.

أَمَا رَأَيتَ اليَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ، وَأَهلَ الأَهوَاءِ المُردِيَةِ يُحِبُّونَ أَنبِيَاءَهُم -أَمَا تَدَّعِي اليَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ كَذَلِكَ وَأَهلُ الأَهوَاءِ- وَلَيسُوا مَعَهُم؛ لِأَنَّهُم خَالَفُوهُم فِي القَولِ وَالعَمَلِ، وَسَلَكُوا غَيرَ طَرِيقِهِم، فَصَارَ مَورِدُهُمُ النَّارَ، نَعُوذُ بِاللهِ مِن ذَلِكَ». اهـ

لَن تَلحَقَ بِالأَبرَارِ حَتَّىٰ تَكُونَ عَلَىٰ مِنهَاجِهِم وَطَرِيقَتِهِم وَتُصبِحَ وَتُمسِي وَأَنتَ عَلَىٰ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ المَرضِيَّةِ.

فَانتَبِه يَا عَبدَ اللهِ، يَا مَن رَضِيتَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالإِسلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيًّا وَرَسُولًا، انتَبِه فَلَا تَكُن وَلِيًّا للهِ فِي العَلَانِيَةِ، وَعَدُوًّا للهِ فِي السِّرِّ، فَاللهُ -جَلَّ فِي عُلَاهُ- يَعلَمُ السِّرَّ وَأَخفَىٰ.

ثَبَّتَنِي اللهُ وَإِيَّاكُم عَلَىٰ الإِسلَامِ وَالسُّنَّةِ، وَنَفَعَنِي وَإِيَّاكُم بِمَا قُلنَا وَسَمِعنَا، وَجَعَلَنَا هُدَاةً مُهتَدِينَ غَيرَ ضَالِّينَ وَلَا مُضِلِّينَ.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَىٰ المَبعُوثِ رَحمَةً لِلعَالَمِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّم.

الفهرس

الفهرس

تَوطِئَةٌ ٥

أوَّلًا: ذِكرُ بَعضِ نُصُوصِ الوَحيَينِ الدَّالَّةِ وَالآمِرَةِ عَلَىٰ اتِّبَاعِ النَّبِيِّ ﷺ وَالمُحَذِّرَةِ مِن مُخَالَفَتِهِ ﷺ ١١

ثانيًا: معنىٰ الإيمان بالنَّبي ﷺ، وذكرُ صفة رسول الله ﷺ في التَّوراة ١٧

ثالثًا: مَعنَىٰ السُّنة ٢١

رابعًا: كمَالُ شَريعَتِهِ ﷺ ٢٣

خَامِسًا: ذِكرُ جُملَةٍ مِن ثمَرَاتِ التَّمَسُّكِ بِالسُّنَّةِ: ٢٨

الثَّمرةُ الأولىٰ: أنَّ المُتَمَسِّكَ بِهَا مُتَّبِعٌ لِلأَمرِ الإِلَهيِّ، وهَذا مِمَّا يُحبُّهُ اللهُ وَيَرضَاهُ ٢٨

الثَّمرةُ الثَّانيةُ: أنَّ المُتَمَسِّكَ بِهَا مُحَصِّلٌ للهِدَايَةِ وَالسَّلامَةِ مِنَ الضَّلالِ وَالزَّيغِ ٣١

الثَّمَرَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ المُتَمَسِّكَ بِالسُّنَّةِ مَعصُومٌ -بِإِذنِ اللهِ تَعَالَىٰ- تَحقِيقًا، وَآمِنٌ مِنَ الوُقُوعِ فِي الاختِلاَفِ المَذمُومِ وَالفُرقَةِ المَذمُومَةِ ٣٦

الثَّمَرَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ التَّمَسُّكَ بِالسُّنَّةِ فِيهِ فِكَاكٌ مِن سُبُلِ الشَّيطَانِ ٤٢

الثمرةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ المُتَمَسِّكَ بِالسُّنَّةِ لَهُ أَجرُ مَن تَبِعَهُ ٤٥

الثَّمَرَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ المُتَمَسِّكَ بِالسُّنَّةِ مُحَصِّلٌ لِلسَّعَادَةِ فِي الدَّارَينِ ... ٤٧

الثَّمَرَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ المُتَمَسِّكَ بِالسُّنَّةِ يَصِلُ بِهِ تَمَسُّكُهُ بِصِدقٍ وَإِخلاصٍ إِلَىٰ دَرَجَةِ مَحَبَّةِ اللهِ لَهُ ٥٠

سادسًا: ذكرُ صورٍ مِن تَعظِيمِ السَّلَفِ للسُّنَّةِ وَ تَمَسُّكهم بِهَا ٥٣

سابعًا: الخَاتِمَةُ ٥٨

الفهرس ٦٣

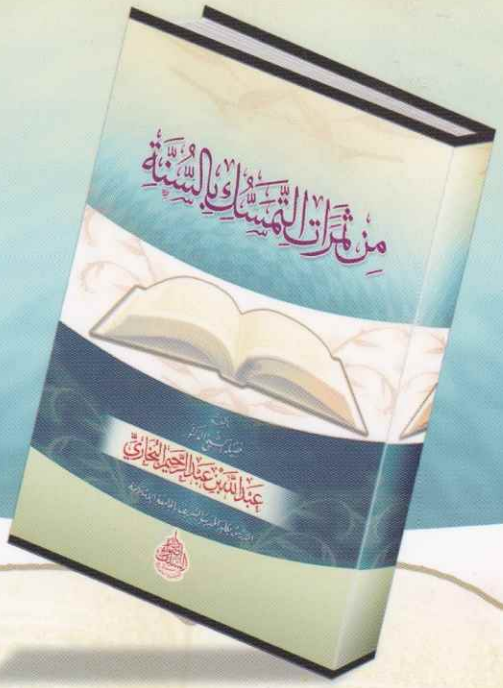

دار أضواء السلف
جمهورية مصر العربية - القاهرة - عين شمس
WWW.ADWAASALAF.COM
DAR@ADWAASALAF.COM
EMAIL: ADWAASALAF2007@YAHOO.COM
ADWAASALAF2007@HOTMAIL.COM